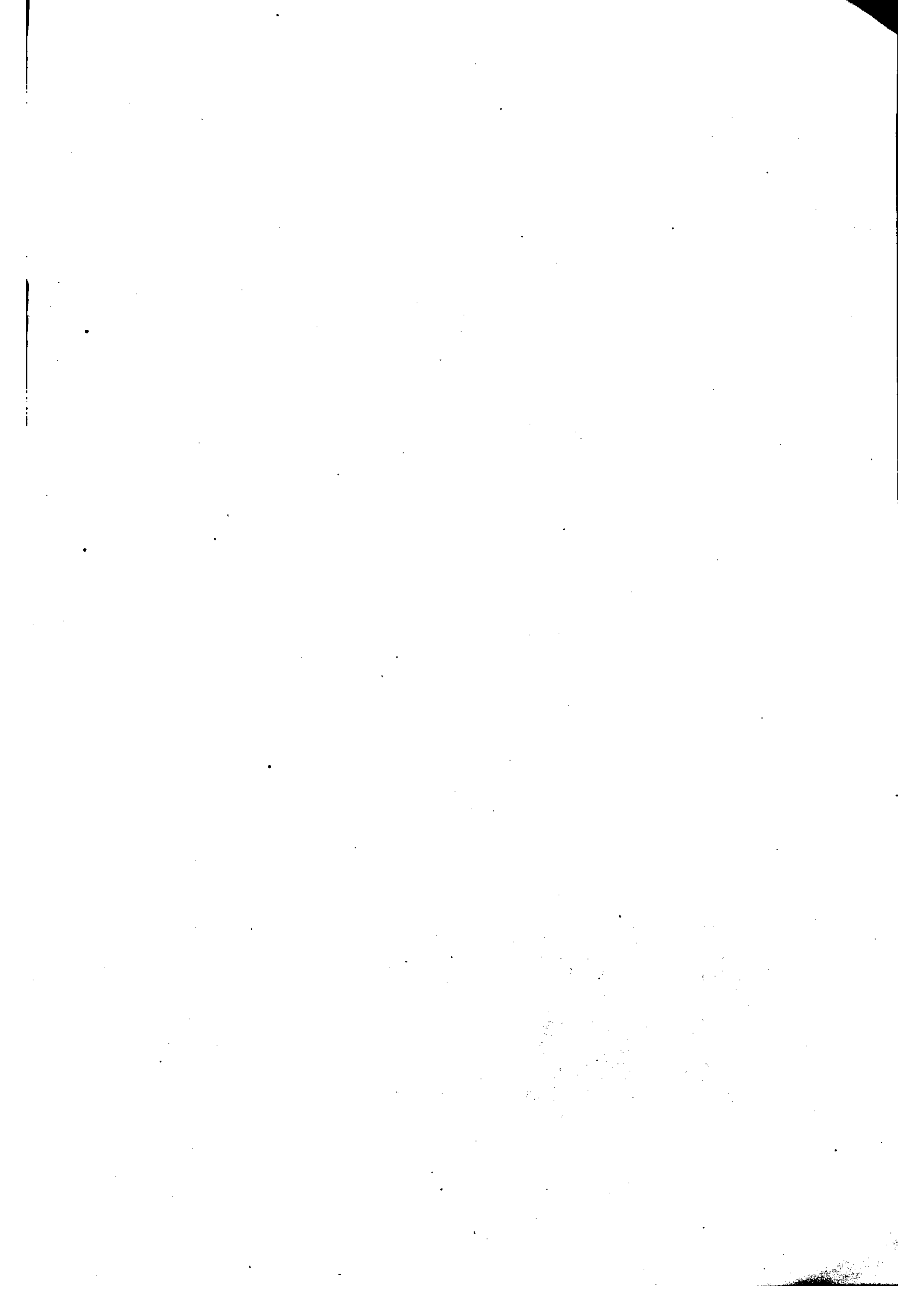
صرخة في غرفة زرقاء



طه وادي

صرخة في غرفة زرقاء

(ديوان قصص)

١٩٩٦

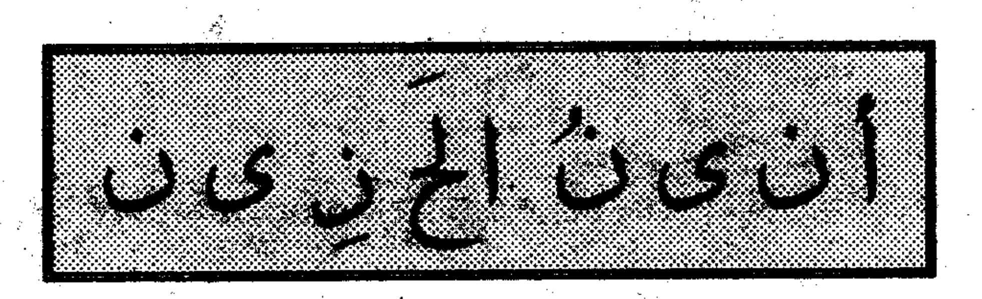
الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

إلى الذيـــن يصْرُخـــون

أمـلاً فـــى

مزيـدٍ مـــن

الصُّــــراخ ... !!


أنينُ الحَزِين



حكاية صغيرة .. مهداة إلى :
سيدة الحزن والجمال

أخيرا اهتدى إلى حل يريحه من القلق والأرق . وضع نفسه فى بعض ملابسه الخفيفة ، ودس قدميه فى أقرب شبشب صيفى . جرى مثل المطارد ـ مع أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل . وصل إلى مكانه المفضل على شط النيل . جلس وحيدا فى الظلام . هذا المكان التاريخى ـ بين حلوان والمعادى ـ شهد كل المواقف الفاصلة فى حياته .. لا شىء يجدد خلاياه ، ويبدد أساه إلا هذا المكان . يؤمن أن بين الإنسان والمكان حبل سرى ، يشكل ملامحه .. ويصوغ كل تفاصيل حياته . غاب القمر ، وهدأت حركة البشر .. لم يبق سوى النيل والليل . جلس القرفصاء . أخذ يتأمل المياه الساكنة . هذا النهر العزيز العجوز .. ألهمه كثيرا من الأفكار السامية ، وعاش معه بعض اللحظات الجميلة .. النادرة فى حياته . قالت أميمة : بدأت أغار ....!!

ـ إلا النيل يا حبيبتى ..!!

تداخلت الأشياء .. أخذ يمشي على الماء . بالقرب من هذه الكنيسة العتيقة .. رست السلة التي كانت تحمل النبي موسى ، وهو طفل وليد . بدا النهر ثابتا ، كأنه طريق ممهد .. وهو يسير على الأمواج . فتاة لها ملامح أميمة ووجهها وقدها ، تناديه من بعيد : تعال .. تعال ..

ـ إلى أين ؟

ـ إلى أعماق الحبيب .

غطسا في الماء .. مضى هو وهي نحو الأعماق . شيء غير عادي عكر ماء النهر .. وجعله أقرب إلى مياه البرك والمستنقعات .

أخذ يغوص تحت الماء .. وهي تسير خلفه ، وقد أمسكت بخصلات شعره ، التي طالت .. وبدت أطول من ضفائر شعرها .

ـ منصور .. لم أعد قادرة .

ـ لا بد أن نرى كل آثار الجريمة .

ـ أية جريمة ؟

ـ اغتيال النهر ...

" رغم القوانين التي صدرت لحماية النيل من التلوث إلا أنها لم تحد من استمرار تعرضه لهذا الخطر المدمر ، وخاصة مخلفات المصانع من كيمياويات سامة ، يبتلعها النهر بدون معالجة . وإذا كانت الدراسات تؤكد أن (٨٪) من أمراض الدول النامية سببها تلوث المياه .. وهي أيضا التي تسبب (٥٠٪) من وفيات الأطفال ـ

فإن مواجهة خطر التلوث أصبح ضرورة بعد أن بحثته العديد من الدراسات العلمية ، وتأكدت من خطورته .

وتؤكد دراسة علمية صادرة من المركز القومي للبحوث ، وأعدتها الباحثة جميلة حسن ، التي تقول : إن العناصر الثقيلة تزايدتْ بسبب وجودها في المسطحات المائية نتيجة لإلقاء مخلفات المصانع ، التي تحتوي على عناصر ذات تأثير سام ، مما يجعل المياه غير صالحة للاستخدام الآدمي . كما أوضحت الدراسة تأثير بعض العناصر السامة .. كالكروم والنحاس على نمو الكائنات الحية .

وأهم مصادر التلوث وأخطرها - على الإطلاق - المخلفات الصناعية السائلة ، التي تأتي من مناطق التجمع الصناعي على النهر ، ومنها على سبيل . المثال : مصانع السكر ، ومصانع النيل للزيوت والصابون ، ومصانع منطقة حلوان ، ومصانع الأسمدة بأسيوط .. وغيرها . علما بأن هذه المراكز الصناعية أُقيمت دون اعتبار لمقتضيات التخطيط البيئي .. هذا علاوة على الكيماويات الزراعية التي تعتبر المصدر الثاني لتلوث مياه النيل ، ويوجد جزء كبير منها ينساب مع مياه الصرف الصحي ، يصل إلى المياه الجوفية ، حيث يؤثر على بيولوجية المياه . كما أن المركبات الفوسفورية والأزوتية ومبيدات الآفات الزراعية المحتوية عليها هذه المخلفات ، لها تأثير شديد على صحة الإنسان .... (١) .

* * *

---

(١) جريدة « الأهرام » - الأحد ٢٥ - ٢ - ١٩٩٥ - العدد (٤٩٥٢٨)

حينَ استقرا فى قاع النهر .. كان كل منهما فى عالم آخر . أخذت تجمع ضفائر شعرها الأسود الفحمى ، بينما هو ينبش الطين بأصابع كلتا يديه ، كأنما يبحث عن شيء عزيز مفتقد .

ـ يقولون يا منصور .. إن العالم الذى نعيش فيه عالم مائى .. ولو سبحنا من هذا المكان ، فسوف نصل إلى بلاد أغرب من بلاد السندباد.

ـ اللعنة حلت علينا يا خضرة ..

قاطعته وقد شهقت ، وضربت باطن كفها على الصدر صائحة : من خضرة هذه يا حبيبى ؟ .. أكيد هناك امرأة أخرى ..

ـ أنت نفرتيتى .. وحتشبسوت .. وتوت .. ومريم .. وفاطمة النبوية.. وقطر الندى .. وشهر زاد .. وناعسة .. وأميمة .. وخضرة ....

ـ خضرة تانى ..؟!

ـ نعم أنت خضرة الشريفة .. ولكن ...

وضعت يدها على كتفه . نظرت إليه فى دلال ، وقالت فى عتاب : لماذا لا تعطينى فرصةً ، حتى أقرأ عليك حلمى الجميل .؟

أخذ يحمل الطين ، ويلطخ وجهه وصدره : من الآن في بر مصر المحروسة لن تولد أحلام .. وإنما كوابيس مزعجة . الطوفان قادم .. انظرى .. انظرى يا حبيبتى ، النيل تحول إلى مستنقع ..!!

ـ ماذا تقول يا منصور ؟!

- منصور .. مكسور يا حبيبتى . النيل غاضب .. وسوف تحل اللعنة قريبا .

- لماذا ..؟!

حمل بيديه قطعة نتنة من الطين ، تسبح فيها الديدان ، والثعابين ، والحيتان ، والضفادع ، وعشرات الحشرات التى لا يعرف لها اسما : هذا بعض اللعنة .

- دود خطير .. يا حبيبى .

- الدود .. واليهود .

- تُنكّد علىَّ دائما ، حتى ونحن تحت الماء .

- لقد وصلنا إلى خط الفقر البرى والمائى .. النيل غاضب .. واللعنة آتية ، لا ريب فيها .

- والعمل ؟

- لا أمل .. إنْ هربنا من الدود ، فلن نقدر على الهرب من اليهود .

- منصور ...

- ضمينى .. زمّلينى .. وإن متُّ ، فهنا ادفنينى ، واكتبى فوق قبري : يا داخل هذا المكان ، صل علىٰ النبى العدنان ، واقرأ الفاتحة لمنصور الغلبان .

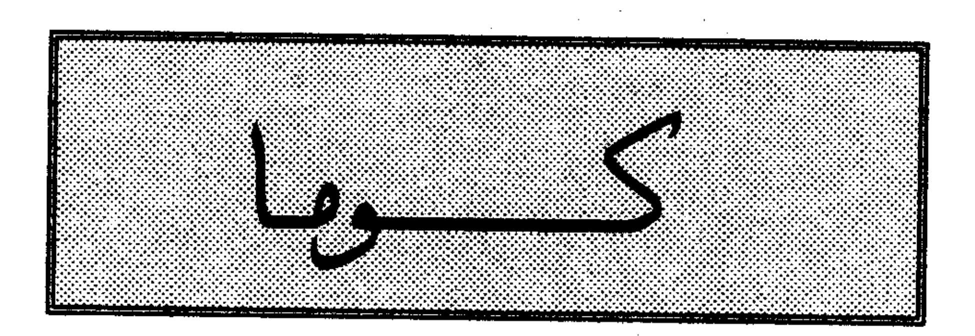
هيىء له أن الدود والثعابين .. وكل الحشرات ، قد تطاولت كأنها كائنات خرافية .. أخذت تنهش فى جسد الحبيبة . حاول أن ينتزعها من بين الأفواه المتوحشة والأطراف السرطانية .. فلم يستطع . أخذ

يصيح ، وهو يلطخ وجهه ورأسه بالطين : نفرتيتى .. مريم .. فاطمة النبوية .. أميمة .. خضرة .. تعالى .. تعالى يا حياتى .

مرت فترة صمت حزين . لم يعد يدرك هل هو قاعد على أرض الشاطىء أم جالس فى أعماق اليم .. أيقظان هو أم نائم .. هل كانت معه أميمة أم خضرة .. هل يفكر أم يهذى ..؟!

بعد فترة طويلة ــ لا يعرف مداها ــ أحس أن هناك يدا رقيقة ، تربت على كتفه فى حنان ... انتبه بصعوبة .. تأمل ـ فى ضعف وحيرة ـ مصدر اللمسة وناحية الهمسة . صياد عجوز ، قال له فى إشفاق : قم يا بنى ، فقد طلع النهار ...!!(*)

(*) الثلاثاء ٢٨ ـ ٢ ـ ١٩٩٥


کوما

نام الزوج ، وهى تحاول أن تتناوم . رغبتْ فى أن تضمه إلى صدرها ، لكنها حبستْ الأشواق فى قلبها . تطاول الليل كأنما لا نهار بعده . البرد اشتد .. والخوف امتد .. والدم تجمد فى العروق . الظلام يحتوى غرفة النوم فى ليلة من ليالى الشتاء الحزينة . لو أن الأولاد هنا لذهبت إلى حجرتهم ، لكنهم ذهبوا إلى بيت الجد والجدّة ، ليقضوا معهما بعض أيام إجازة نصف السنة . تمنت أن تعود أيام زمان .. أيام بيت العزّ ..!! بدت المسافة بعيدة بين الماضى والحاضر . تنقلب ذات اليمين وذات الشمال . لا فائدة .. الرجل مستغرق فى النوم مثل أصحاب الكهف . منذ سنوات ـــ لا تعرف مداها ـ كان الزوج ينتهز فرصة نوم العيال ، حتى يقضى معها ليلة سعيدة . أحيانا .. يخيل لها أنه لم يعد الرجل ، الذى كانت تعرفه . شيىء ما شل حركته وأضعف رؤيته . تمنت أن تضم القريب البعيد إلى صدرها .. أن تحسّ الدفء وتشعر بالأمان . الإنسان يكون ضعيفا حين يشعر بحاجته إلى الآخر ، وهو أشد حسرةً وألماً حين يرغب فلا يجد ...!!

انتفضت فجأة . الباب يفتح فى هدوء ويغلق . ما حدث حقيقة أم وهم ..؟! الخوف والبرد والرجل النائم سر أزمتها . استعاذت بالله العظيم من وسوسة الشيطان الرجيم . دفنت رأسها تحت المخدة . غطت كل مكان فى جسدها بالبطانية واللحاف ، ثنتْ رجليها ويديها .. لكى تدفىء الأجزاءُ بعضها بعضا . بدأتْ تعدُّ من واحد إلى مئة . حين وصلت إلى رقم (٦٧) .. أحست حركة غير عادية فى الصالة . الحركة هذة المرة ليستْ وهما . هناك شخص أو أكثر يحرك مائدة الطعام ، حتى يستطيع أن يفتح دولاب الصينى والبوفيه بسهولة . انتفضتْ جالسة . أخذتْ تهز زوجها عنتر بقوة : اصحَ .. قمْ يا رجل .

شد الغطاء حول رأسه قائلا : اتهدّى ونامى .

- حرامى .. لا .. حرامية .

- بطلى تخاريف يا امرأة .. اعقلى .

يا مصيبتك السوداء يا سامية .. جوزك يأكل أرزًا باللبن مع الملائكة أو العفاريت .. يا عينى علىَّ وعلى وكستى ..!!

هدأت الحركة فاستعادتْ بعض أنفاسها الضائعة . قرأتْ (آية الكرسى) . تطاولتْ بجوار الزوج . اقتربتْ أكثر حتى تقتل هموم البرد والخوف والظلام . لكن النوم لم يطرق لها جفناً ، والأمان لم

يلمس لها قلبا . ويل للصاحى من النائم . قم يا عنتر .. قم . لا فائدة .. لا أمل . لا حول .. ولا .. ولا..!!

بين الخوف والبرد ـ أدركت أن هناك أمرًا غير عادى . أرهفت السمع مرة .. ومرة .. ومرة . ليس الأمر وهمًا . أكيد .. فى البيت لصوص . تسكن فى هذا البيت منذ فترة طويلة . ولم يحدث أن شعرتْ بما تشعر به هذه الليلة . باتت وحدها كثيرًا دون زوج أو ولد ، لكنها لم تكن تخشى شيئا . منذ مدة ماتتْ صاحبة البيت ، فاستغنى الورثة عن البواب ، وصار بابُ العمارة مفتوحًا فى الليل والنهار . تحوّل البيت إلى سوق بعد أن أخذ الورثة يكثرون من تأجير الشقق المفروشة لمن هب ودبّ .

بالقرب من البيت ظهر ـ فجأة ـ دكان سمسار عمومى ، مستعدّ لشراء وبيع وتأجير أىّ شىء .. أى شىء ، حتى لو ... المهم الفلوس . كله (بيزنس) .. (Business) ـ كما يقول . هذا المحل كان شقة عامرة ، تسكن فيه عائلة طيبة.

دكان المعلم فواز يعقوب ـ صار وكرًا لكل شىء .. كل شىء .. وهو الآن « شيخ منسر » ، يقبض من البائع والمشترى .. ومن المؤجر والمستأجر .. بل إنه ـ أحيانا ـ يحضر لبعض السوّاح النساء والخمور ، ثم يبلغ الشرطة .

منذ ماتتْ صاحبةُ البيت ، وفُتحتْ وكالة المعلم فوّاز يعقوب أصبح كل شيء جائزًا ..!!

ازدادت الحركة فى الخارج ، وارتفع صوت الهمس . مشت على أطراف قدميْها . أحكمت ربط حزام روب الكستور . وضعت أذنها اليسرى مكان المفتاح ، الذى ضاع منذُ وقت بعيد . حين أيقنت أن الحركة حقيقة ، أغلقت الترباس بخفة وهدوء . تعجبت لما حدث . اللصوص ـ أيام زمان ـ كانوا يسرقون ، لأن أصحاب البيت ليسوا فيه . لكن لصوص هذا العصر يسرقون البيوت وأهلها حاضرون . قفزتْ من الأرض إلى السرير ، واستقرتْ بجوار الزوج النائم . لم تكن قادرة على الكلام . أخذت تهّزه بقوة ، ففزع قائلا : مالك يا امرأة .. أكيد ركبكِ عفريت الليلة .

وضعت يدها ـ فى الظلام ـ على فمه . أحسَّ أطرافها باردة ، بينما تمتمتْ هامسة بأنات مذبوح : حرا .. حرامية ...!!

ـ ما .. ما هذا التخريف ؟

اصطكتْ أسنانها ، وهى تتمتم فى ضعف وخوف : اسْ .. اسمع .. وسـ .. سو .. سوف .. تتـ .. تتأ .. تتأ .. تتأكد ....

حاول عنتر أن يُصغى لما يحدث خارج الغرفة . أخيرا .. أدرك أن زوجته على حق . الآن تذكر أنه .. منذ سنة وسامية تطلب

كالونـــا جديـــدًا وترباســـا قويـــا ، حتـــى يحكمـــوا إغـــلاق الباب . تذكر مثلا كانت تردده أمه - رحمها الله : « البـاب المغلـق يمنع القضاء المسـتعجل . » الحركـة المضطربـة فـى الصالـة .. تـزداد وضوحًـا . اللصـوص .. يمشـون .. يتحركـون .. يتكلمـون .. يسرقون . شعر بالعجز والغيظ فى آنٍ واحد : ماذا نفعل ؟

لم يستطع أن يقـول أو يفعـل شيئا .. بـل لم يعـد يعـرف كيـف يفكر ؟! معانى الخيبة والحسـرة شـلت قدراتـه . هزّتـه مـرة ومـرة ، وهى تردد هامسة : الوقت ليس فى صالحنا .

توقف الزمان .. وتجمد الإنسان . لم تكن زوجتـه مسـتريحة لـردّ فعله . يستحيل أن تتركهم يسرقون بيتهم بهذه الطريقة . كل شـىء فى متاع البيت ، له ذكريات عزيزة حتـى ملعقـة الشـاى . بسـرعة خاطفـة ودون تفكـير ــ حركـت مفتـاح النـور ، فتحـت البـاب ، اندفعت نحو الصالة ، وقفت بينهم . لم يتحركوا .. ولم يبـد عليهـم أىّ تعبير عن الخوف . بنظرة سريعة رأت أنهم أحضروا التليفزيون ، والفيديـو ، والمسـجل ، والصينـى ، والفضيـات ، وتمثـال فرعونـى قديم . لصوص أم تتار .. هؤلاء الرجـال الخمسـة ؟! صـاحتْ دون وعى ، وشعرها المنكوش يغطى بعض أجزاء من وجههـا المرتعـش : ماذا تفعلون يا كلاب ..؟!

أظهر واحد منهم مسدسًا ، والآخر مطواة قرن غزال . بينما قال ثـالث يبدو أنه زعيم العصابة : لو أنك رجل .. لكان لنا معك تصرف آخر .

صاح رابع أعور ، وضع على عينـه الفارغـة عصابـة سوداء من الجلد : اخرسى .. اخرسى يا امرأة .؟

ـ إذا لم تتركوا المتاع وتغادروا البيت ، فسوف أصرخ و ....

مسرعاً جرى نحوها الأعور . وضـع يـده اليسـرى علـى فمهـا ، وغرز خنجرًا فى نهاية الرقبة . غلى الـدم فـى عـروق عنـتر ، الـذى كان يرقب الموقف من حجرة النوم . مشـى خائفـا يـترقب ، وتمتـم مرتعشا ، والضوء يعشى عينيه : خـ .. خـ .. خذ .. خذوا .. أ .. أ .. أىّ .. شـ .. شيـ .. شيـ شىء .. لـ .. لكـ .. لـ .. لكـ .. لكن .. اتـ .. اتـ .. اتـ .. اتركوا .. ز .. ز .. زو .. زوجتى .

جاء صوتُ الزعيم من خلف القناع : أثبت أنك عاقل ، وسوف تعود سالمة فى الصباح . وإلا ...

اقترب منه حامل المسدس ، وهو يصوّبه ناحيـة الـرأس : لا نريـد أن نجعل أطفالك يتامى يا عنتر .

لصـوص عصـر الكمبيوتـر .. يعرفـون مـن يسـرقون .. ومـاذا يسرقون ؟! .. كله بيزنس . تبادل مع الزوجة نظرات حزن وخوف وقلق . تأمل امرأته ، وهو يجترُّ همًا وحسرة . امرأته لـو فُـك حزامُ

روب النوم ، لظهرتْ عريانة .. كما ولدتها أمها . تلك عادتها - صيفا وشتاء - منذ تزوجتْ . صاح كالملدوغ :

- خذوا أىّ شىء ... اتركوا زوجتى .. أرجوكم .. أرجـ ...

قطع كلامه الزعيم فى ضيق : لا نحب أن نقول الكلمة أكثر من مرة .. اثبت أنك عاقل ، وسوف ترى .

أىّ عقل .. وأىّ جنون .. يا ألله .. يا ملائكة .. يا عفاريت .. ماذا أعمل .. يا ناس .. يا هوه ؟! بدأ اللصوص يرتّبون كل شىء فى هدوء ، وحزموا كل الأمتعة التى جمعوها . شدّ انتباهه ضحك متواصل من لصّ متعجرف ، لم يتكلم من قبل : شكرًا يا عزيزى .. فقد فتحت باب الحجرة المغلقة ، حتى نأخذ الذهب والملابس .. ها .. ها .. هاها .. ولكن أين الذهب ؟

خشى أن يعذبوا زوجته أو يعذبوه ، فأجاب سريعا : فى الكمودينو .. بجوار الشّبّاك .

تساءل الأعور : معك فلوس ؟

- لا .. لا والله ..

قال شيخ المنسر : إنه موظف .

مع برودة الخوف مرت اللحظات بطيئة .. ثقيلة . بينما اللصوص يحملون المتاع . كانت الزوجة غائبة عن الوعى .. الفم

مكمم والخنجر فى رقبتها . تاه عنتر فى الزمـان والمكـان .. لم يعـد سوى عينين ، تتحركان فى ذهول وحسـرة . ظـن ـ وبعـض الظـن خيبة ـ أنهم سوف يـتركون زوجتـه بعـد أن يـأخذوا مـا يريـدون . لكنهم ـ بهـدوء قبيـح ـ جروهـا معهـم ، وهـم يلوحـون بالمسـدس والخنجر والمطواة .

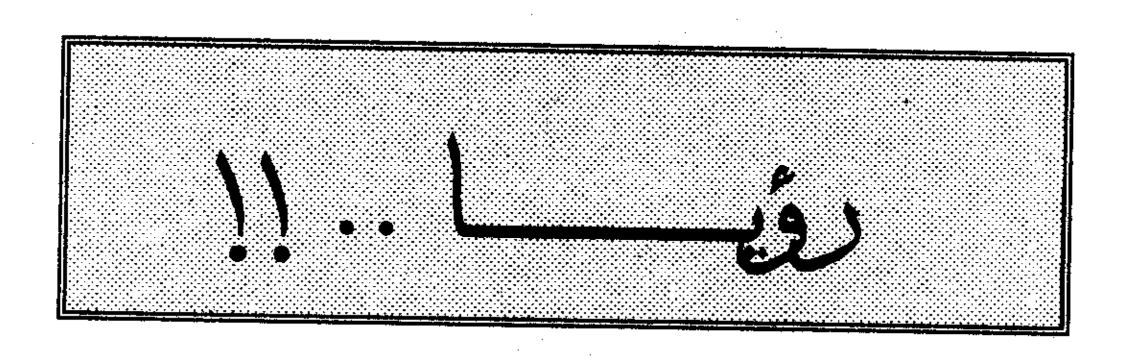
قال كبيرهم وهو يغلق الباب : اثبت أنك عاقل ، وسـوف تعـود لك فى الصباح . نحن لصوص .. لكننا شرفاء ...!!

سقط الزوج باكيا .. مذهولا . أخذ ينظـر فـى دهشـة وحسـرة ذات اليمين وذات الشمال . لا يزال البرد شديدًا والليل طويـلا . لم يكن حزينا على ما سرقوه ... وإنما الـذى يهـزّه ـ مـن الأعمـاق ـ منظر زوجته ، وهى تتلوى بين يدى اللص ، والخنجـر مغـروس فـى رقبتها . ظل يبكى .. ويلطم خديه . تحوّل البيت العـامر إلى خرابـة موحشة . بينما يبكى .. ويلطم خدية ، تراءى طيف أمـه يـأتى مـن وراء الغيب ، وينظر إليه فى أسى وحسرة :

لا تبـكِ مثـل النســاء علـى بيــتٍ .. لم تحـافظ عليـه محافظـة الرجال ..!(*)

(*) الجمعة ٢٠ يناير ١٩٩٥

نُشرتْ فى الملحق الأدبى لجريدة « الأهرام » : يـوم الجمعـة ـ ٢٢ ديسـمبر ١٩٩٥ ـ العدد (٣٩٨٢٧)


رؤيـــا .. !!

... رأيتُ فيما يرى المجاهد فى طريق الكشف ـ وهو حاضر غائب ـ أنى مت ، ونظرا لأن الوفاة جاءت مباغتة أصر بعض الأهل والجيران علىأن تتم الجنازة فى اليوم نفسه ، بحجة أن إكرام الميت دفنه . هكذا توفيت أنا المغفور له : معتز عبد العزيز أبو العز فى الرابعة من ظهر الثلاثاء .. ودفنت فى السادسة من مساء اليوم نفسه . رحلت عن دنيا الناس دون أن يودعنى أحد ، حتى الزوجة والأبناء .. لم يخطر على فكر واحد منهم أن يلقى علىَّ النظرة الأخيرة .. أو أن يعطينى قبلة الوداع . واحدة من عجائز الأسرة ـ منيرة .. زوجة عمى قاسم ـ تجرأت وكشفت الملاءة البيضاء ، وحاولت أن تغمض عينىَّ بإحكام ، وتغلق فمى ، وتفرد يدى بجوار جسدى ، وتمدد ساقىَّ . ثم أخذتْ تردد بصوت حزين : " اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فلس دونك شىء . هذا عبدك وابن عبديك ، خرج من ظلام الدنيا إلى نور الآخرة . اللهم اغفرْ ذنبه ، وعظم أجره ، واغفر لنا وله بحق شهادة لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله . "

بعد أن وضعتْ بعض قطع صغيرة من القطن الطبى فى فتحات الجسد ، قالت وهى تلف الملاءة من الرأس إلى القدم :

- اخرجوا من هنا .. ودعوا روحه تنصرف فى سلام .

لم أشعر بعد ذلك بما حدث ، فقد كانت حالة الغيبوبة شديدة ، لكنى بدأت ـ بعد مُدّةٍ .. لا أعرفُ مداها ـ أستعيد قدرا من الوعى ، واللحاد يضعنى فى القبر بهدوء .. قائلا : " يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى . "

حين سدوا علىَّ باب القبر .. أستعدت الوعى كاملا . مزقتُ قماش الكفن . أخذت أتعرف على المكان بحاسة اللمس . رغم الظلام والهواء والعفن - لم أخف .. ولم أرتعش .. ولم أشعر بوجود أى من الأرواح الشريرة أو العفاريت ، التى يقولون إنها تسكن المقابر . وجدت بعض الجماجم والعظام الهشة المتبقية من جثث الرجال من أسرتنا . تيقنت أنى حىّ ـ لم أمت ، لأنى أعلم أن المتوفى حين يُسد عليه باب القبر ، يأتيه ملكان ، يسميان " مبشر وبشير " إن كان من أصحاب الجنة .. و " منكر ونكير " إن كان من أهل النار ، ويحاسبانه على ما فعل . طال الانتظار .. لكن لم يأت أحد . الحمد لله .. الناس تولد مرة .. وأنت تولد مرتين يا معتز . اللهم فرِّجْ كربتى ، وآمن روعتى . يا من تحيى

وتميت ، بك أستغيث من ظلمة القبر وعذاب الحشر .. يا رب .. يا رب ساعدنى .

فى مساحة لا أعرف لها بداية أوْ نهاية .. اكتشفت ـ بالمصادفة ـ جدارا رطبا . وضعت كلتا يدى عليه متضرعا : اللهم أتوسل إليك بنور وجهك الكريم ، وأتشفع لديك ببركة نبيك العظيم .. أن تردنى حيا ، وتعيدنى بشرا سويا . اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، واحمنى بالصالحين من ملائكتك .....!!

قبل أن أنتهى من الدعاء .. سقط باب القبر . بدأ الهواء النقى ينعش رئتى . مقدار طوبة واحدة .. تفصل بين عالمين مختلفين : عالم القبر .. وعالم الدنيا . العلاقة بينهما قريبة بعيدة .. تضل كثيرا من الناس إلا من عصم ربك .. ياه ..يا ألله .. الحمد لله القادر ..!!

حين وضعت قدمى خارج القبر أحسست بقدر من البرودة . أحكمت لف الكفن حول جسدى خاصة الجزء الأسفل ، فبدا منظرى مثل فقير هندى . المسافة بين المقابر والمساكن ليست بعيدة . نزلت المدينة خائفا أترقب . فى أول شارع ـ طرقت باب بيت ، توسمت فى أهله الخير . جاء طفل صغير يلعب بحصان خشبى .. عندما رآنى ، فر هاربا دون أن ينطق بحرف . بداية غير مشجعة ... انتظرت قليلا ، فجاء رجل وقور ، يبدو أنه صاحب البيت ، فحيانى ببشر : سلام عليكم .. أى خدمة يا رجل يا طيب .

ـ " آييه صاهب " .

ـ ما تقول يا رجل ؟

ـ أهلا سيدى .. بلغة أهـل الهنـد ، فأنـا هنـدى .. لكنـى مسـلم موحد بالله ، وقد جئت لأعزى فى وفاة أحد أصدقائى .

ـ يبدو أن رحلتك كانت صعبة .

ـ الجهاد أول الطريق ، والجلوة لا تأتى إلا بعد الخلوة ... من يتق الله ، يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

ـ على الرحب والسعة .. فقد انفتح لك قلبى قبل باب دارى .

قلت وأنا أمرق إلى الداخل : " دهانيفاد " .. أشكرك .

أخذ على أبوزيد يحملق فىَّ مندهشا ، لأنى أرتدى ملابس الهنـد فى مصر .

أطعمنى الرجـل .. وأدخلنى إلى الحمـام فاغتسـلت ، ولبسـت إحدى جلابيبه وطاقية بيضاء . ثم صليت المغرب والعشاء . قضيت معه لحظات سعيدة ، لدرجة أنه لم يكن يريـد أن ينـام .. ولا أنـا . الأمر الذى آلمنى .. أنى تعاملت معه باسم مستعار هـو .. درويش الأبيض . كنا نذكر الله ونشكره ، ونتحسر على ما حل بالمسـلمين من ضعف وهوان .. فى كل مكان .

أخذت أثبت فؤاده وفؤادى بتلاوة بعـض أوراد الصوفيـة ، التـى كنت اقرؤها ـ وحدى ـ دائما .. لأنـى بعـد الخـروج مـن العمـل لا أزور .. ولا أزار . ختمت حديثى معه بهذا الابتهال :

قفْ بالخضوع ، ونادِ ربك يا هُو إن الكريمَ يجيبُ من نـاداهُ
واطلبْ بطاعته رضاه فلم يـزل بالجود ، يُعطى الطالبين رضاه
واسأله مرحمةً وفضلا إنه مبسوطتان لسائليه يَداهُ
ربٌّ رحيمٌ ، مشفق ، متعطفٌ لا ينتهى - بالحصْر - ما أعطاه
كم نعمةٍ أولى ، وكم من كربةٍ أجْلى ، وكم من مُبتلٍ عافاه
فإذا بُليتَ بغربةٍ أو كَربة فادعُ الإلهَ ، وقلْ سريعا هُـو

نظر إلىَّ الرجل نظرة السالك إلى الواصل ، وطلب منى أن أزوره كلما حضرت إلى المدينة . وضع فى يدى بعض المال ، وهو يودعنى .. وأنا بالزى الجديد قائلا : ألا تريد أى شىء يا أخى ؟!

- " ناهيه شكريا " .. كلا أشكرك .

نسيت فى الجلباب والعمامة شخصية الأستاذ معتز أبو العز - مدير الشئون المالية والإدارية بمديرية الزراعة ، وتقمصتُ شخصية الشيخ درويش الأبيض . عندما اقتربت من البيت - فى المساء - وجدت صوانا كبيرا . كدت أقبل ولدى الكبير وأنا أصافحه معزيا ، لكننى تماسكت فى اللحظة الأخيرة . أخذ محمد يتأمل ملامحى ، وسألنى عن علاقتى بالوالد - رحمة الله عليه . بكيت بكاء حارا ، منعنى من الكلام ، ولفت نظر المعزين إلىَّ . بعد مدة حضر إلىَّ فى مجلسى .. الولد الصغير أحمد - الذى طلبت رؤيته . لا يزال المسكين .. يبكى منذ الأمس . احتويته بين ذراعىَّ : تعال يا بنى .. فقد حدثنى أبوك كثيرا عنك ، لأنه كانَ يحبك حبا جما .

أخذ يتأملنى بمودة وحنان .. وهو يغالب دموعه : من أنت يا عمى ؟

- عمك درويش .. صديق أبيك الروح بالروح .

- فيك أشياء كثيرة تذكرنى بالمرحوم .. حتى نبرات صوتك ...

- سبحانه وتعالى قادر .. يخلق من الشبه أربعين .

تعجبت - فى داخلى - لأن الطفل الصغير ، هو الذى أدرك ما لم يدركه الكبار . عزَّ علىَّ أن معظم الذين أحسنت إليهم لم يحضروا .. كما أن زملاء العمل غائبون كلهم ، ما عدا فرغلى أبو سليم - عامل المكتب .. الوفى الوحيد فى كل موظفى المصلحة . ثلاثين سنة أعمل فى الزراعة .. ولم أحصد شيئا ، حتى صغار الموظفين فى إدارتى ، الذين أعطيتهم علاوات وإجازات وجاملتهم .. لم أر منهم أحدا . كما أن بعض أقاربى وأقارب زوجتى ، الذين حضروا للعزاء ، لم يبد عليهم أى أثر للحزن . سبعة وخمسون عاما .. لم أغضب أحدا .. لم أسرق .. لم أزن .. لم أشهد زورا .. لم .. ولم ..!! جف نهر الإخلاص ، وضعف النبع فى القلوب ..!!

بدأ المقرئ يستعد للتلاوة .. وهو يأخذ فى الليلة ألف جنيه . مقرىء مشهور .. وصوان عظيم .. هل هذا حبا فى أبيكم يا أولادى .. أم إرضاء لكبريائكم أمام أهل الحى ؟! رحم الله أبا

بكر الصديق ، حين حضرته الوفاة أوصى أهله ألا يغلوا فى ثمن الكفن ، لأن الحى أولى من الميت ..!!

رجل من الحارة يحمل جريدة فيها نعى الأسرة والمديرية . السيدة زوجتى - سامحها الله - ذكرت أسماء أقاربها .. وتجاهلت إخوتى وأخواتى .. حتى أنتِ ...!!

فى المدخل كان ولدى محمد يدخن الخبيثة ، بطريقة توحى أنه يدخن منذ فترة . عندما كنت صغيرا .. لم أكن أقدر على مخالفة والدى حتى فى الخيال والحلم . أما جيل أولادى فيرى أن المخالفة مكسب حضارى .. ومظهر ديمقراطى .. يا ميت ندامة . فجأة وقف كل من فى المدخل ، فقد حضر - متأخرا - سيادة المدير العام الجديد ، وخلفه كثير من الموظفين . دخلوا مثل فريق جوالة يمشى وراء القائد .. حتى الذين طالما شكوا من ظلمه ، حرصوا على الحضور فى موكبه . لبس الجميع ملابس أنيقة ، كأنهم ذاهبون إلى حفل عُرس أو وليمة . آخر المنافقين لسيادة المدير العام هو محمد ابنى ، الذى جاء يحمل علبة مارلبورو ، ليعزم على المدير وأتباعه .. اللهم إنى أسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ،

وأسألك الشوق إلى لقائك ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك . اللهم ارحمنى برحمتك يا أرحم الراحمين ... !!

لم أعد أحتمل الجلوس .. قررت أن أذهب لعزاء أم الأولاد ، إذ لا ريب أن موتى المفاجئ قطع بها قطيعة ، لا يعرف مداها إلا علام الغيوب . حين دخلت الدار بصحبة أحمد ، لم تفطن أية واحدة من النسوان إلى أى وجه شبه يربطنى بالفقيد ، حتى السيدة المصونة .. أم محمد . كانت إحدى قريباتها توصيها أن تحتفظ بالميراث كله : نحن ولايا .. والواحدة منا - يا حبيبتى - لا ينفعها بعد موت رجلها إلا ما فى يدها ...

- البقاء فى حياتك يا أم محمد .

كانت أرملة أنيقة رشيقة - رغم ملابس الحداد السوداء ، وقد زججت الحواجب ، وكحلت العيون ، كأنما تستعد للبحث عن رجل آخر بعد قضاء فترة العدة ... مع أنها تجلس على السرير ، الذى حملت عليه كل الأولاد الأربعة . يا مثبت العقل والقلب .. ثبت إيمانى . غطت شعرها الأسود المسترسل بطرحة سوداء ، وردت فى ضعف : شكر الله سعيكم .. لكن من حضرتك ؟

لم أعد راغبا فى النظر إليها : واحد من أصدقاء المرحوم المخلصين .

- لم يحدثنى عنك مطلقا .

- هل تظنين أن أى زوج يقول لامرأته كل شىء .. المهم .. خلى بالك من نفسك ، وحافظى على الأولاد .

- المرحوم لم يترك أولادا ، وإنما رجالاً محترمين .. مثل أخوالهم .

- الله يرحمك يا صاحبى .. الفاتحة على روحه .

خنقتنى العبرات ، وأغاظتنى المرأة ، وأنستنى أن أسلم على ابنتىَّ : فوزية وسعدية . أخذت أسرع الخطى ، حتى أبعد عن دار ، أحس فيها بالغربة والفقد . هذه الحارة التى أعيش فيها منذ تزوجت ، لم أعد أعرف لها بداية من نهاية .

وقفت فى مكان هادىء ، حتى لا يرانى أحد باكيا . أحسستُ بدوار ورعشة . لم أكن أدرى .. ماذا أفعل .. ولا إلى أين أذهب . تماسكت .. وذهبت إلى الصوان ، حتى أفكر هناك بقدر من الهدوء . وجدت المعزين قد انصرفوا جميعا حتى أولادى . جلست - وحيدا - فى المقعد الذى كنت أجلس عليه من قبل . هكذا يعود الإنسان إلى حيث بدأ .. وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى .. هذا الزحام لا أحد . كل يعرف طريقه إلا أنا .. لكن أنا .. أنا من .. معتز أبو العز أم درويش الأبيض ..؟! يا مثبت العقل والدين ثبت قلبى .. يا ألله .. يا أكرم من سُئل .. ويا خير من أعطى . يقولون خذ الرفيق قبل الطريق .. وأنا مالى رفيق ، ولا أعرف

الطريق . شعرت أنى أسير فى برْزخ بين العالمْين العلوى والدنيوى . لم أعد أعلم هل أنا من أصحاب الأجساد الكثيفة .. أم الأرواح اللطيفة . يا جبار .. يا غفار .. يا عالم الأسرار .. يا مقلب القلوب والأبصار .. دلنى على الطريق .. وخذ بيدى . يا ربى ذهب كل رفيق إلى صديقه .. وعرف أكثر الناس طريقه .. فهيىء لى من أمرى رشدا .

مشيت وقد انتصف الليل ، والنور يصارع الظلام ، وطيف ابنى الصغير يلح على مخيلتى ، يذكرنى - بقوة - بعالم الناس . مضيت أغذ السير - رغم أنى لا أعرف الطريق . قلت فى نفسى : لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ، لأدركت أن من يعيش فى قلب أحبابه لا يموت . الموت الحقيقى ألا يكون لك صديق ..... (*)

(*) الاثنين ٦ - ٣ - ١٩٩٥ - نُشرت فى مجلة « حواء » - القاهرة ، العدد (٢٠٢٣) فى ١ أول يوليو ١٩٩٥

كـــــلاب حارتنـــــا

قصة مهداة إلى :
شيخ حارة الحكىْ
العربى ..!!

إحساس بالغثيان يسيطر عليها .. فى الرابعة والعشرين .. لكنهـا تعانى من حالة خاصة . اصطدمت حنـان بصبى مكوجـى ـ وهـى غارقة فى أفكارها ـ كاد يقع بما معه . أمسكت بذراعيه النحيلتين . عيون الطفل غائرة ، توحى بأنه لم يتناول طعاماً منـذ فـترة طويلـة . تمنت أن تعطيه نصف جنيـه .. أو حتـى ربـع ، تذكـرت أن جيبهـا خال إلا من جنيه يتيـم ، عليهـا أن تدبـر حالهـا بـه إلى أن تعـود إلى البيت . ما يحتاجه البيت يحرم على المعبـد . مضـى الطفـل ... وتـاه فى زحام ليل يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ... من أين جاء هذا الزحام

يا قـاهرة .. ؟! النـاس .. السيارات .. الكـل يمضـى سـريعاً إلى درجة التهور . العالم كله أمسى غـولا بـلا عقـل أو منطـق . الأمـر الوحيد الممكن عمله ـ يا حنـان ـ أن تحمـى ذاتـك فـى هـذا الزمـن الردىء من الكـلاب وأولاد الكـلاب .. والعيـش الهبـاب . القـراءة جعلتها تحس أنها عجوز فى الأربعين .. والثقافة غذت فـى روحهـا دوافـع الغربـة والاكتئـاب . لـولا القـراءة لعاشـت مثـل كثـير مـن زميلاتهـا .. الأديـب الكبـير هــو ســر شــقائها وســعادتها :

« إذا كنت سعيداً فتزوج ، وأنجب أطفالا تسعدهم . وإذا كنت تعيساً فيكفى ما فى الدنيا من تعاسة . »

أخيراً وصلت إلى مقر جمعية الأدباء . لافتة على الجدار مكتوب عليها بخط غير متناسق :

التطلع إلى المستقبل بعيونِ الماضى

ندوة ثقافية عامة

للأديب الكبير نبيل محمود

الليلة يتحقق حلمها وترى الأديب العظيم ، الذى تحتفظ بأكثر من نسخة من رواياته .. وبملف لكل أحاديثه ومقالاته .. الليلة ـ لأول مرة ـ سوف تراه .. وتسمعه .. وتنظر إليه . سوف تناقشه فى كل ما يقول ، حتى يدرك أن كل ما قال وصل إلى قلبها . ليته يعرف .. ليته يفهم . لكن حتى لو عرف .. أو فهم ما النتيجة ...؟!!

استعادت فى خاطرها عنوان المحاضرة « التطلع إلى المستقبل بعيون الماضى » .. لم اختار الأستاذ نبيل هذا الموضوع ... وهل يريد أن يتبنى هذا المنظور .. أو أنه يريد أن يخالفه .. ويقنع الآخرين بأهمية الحداثة وضرورة المعاصرة . هذا الرجل أديب .. مفكر .. يحب الوطن والناس .. ويؤمن بالله وبالمقدسات .. لكنه فى الوقت نفسه يعتقد أن التفكير العلمى هو السبيل الوحيد لحل

أزمات الحياة .. الإنسان يجب أن يكون ابن عصره . دون الوعى بالحاضر والمستقبل نكون مثل أهل الكهف .

وصلت بها قدماها إلى صالة الجمعية ، فوجدتها مزدحمة بشخصيات لم ترها من قبل ، ولا يبدو أن لها علاقة بالثقافة أو الأدب . حنان زبونة محترفة . بدت الصالة فى الضوء الشاحب مثل سفينة نوح . الخصوم والأنصار تجمعوا فى مكان واحد . رفّتْ عينها اليسرى ، فبصقتْ سرًا - فى فتحة البلوزة الزرقاء ، قائلة : اللهم اجعله خيرا . لم يكن ثمة أمر يشغلها سوى رؤية الأديب العجوز - الذى تجاوز الستين ، لكنه لا يزال شاباً فى كتاباته ، وفى تصديه لكل مظاهر التزمت الفكرى وظواهر التخلف الحضارى . من شدة الإعجاب به .. ترفض كل خطيب ، لأنها تتمنى رجلا فى هيئته شكلا ومضموناً . لكن .. هل يقبل ذلك الرجل العجوز أن يتزوج فتاة فى عمر أصغر ابنة له ..؟! ولم لا ..؟! فى الحب والحرب .. لا شىء مستحيل ، بل كل شىء ممكن ومباح . المهم أن تأخذ زمام المبادرة . الدهن فى العتاق .. الرجل المجرب أفضل ألف مرة من شاب ساذج أجوف . الجو خانق .. الخريف أجمل فصول السنة جواً فى مصر .. فما بال هذا الخريف يبدو كئيباً مزعجاً ..؟!

نظرت حولها فى ضيق . الصالة بها رجال ونساء وشباب كثيرون . مجموعة من الشباب ذوى اللحى الكثيفة ، يثرثرون فى صخب . طائفة من الفتيات المحجبات والمنقبات ينظرن إليها شذرا ،

لأنها عارية الرأس وتضع مكياجا خفيفا .. بعض الكحل فى العينين .. وروج وردى فى الشفتين . كم يبدو الكون كئيبا إذا لم تشع المرأة فيه الإحساس بالبهجة والجمال ..؟! حاولت أن تبحث عن أحد تعرفه .. أو عن ركن هادىء .. فلم تجد . كانت تقف قرب الباب ، لأن الصالة امتلأت بالحاضرين وبعض الصحفيين ومذيعة حسناء جاءت لتسجيل الندوة . حرارة الجو ورائحة العرق .. نظرات الشبق .. والملل والقلق .. كل ذلك دفعها لأن تذهب إلى الخارج ، وتقف أمام الدار ، لتكون أول من يستقبل الأديب العظيم . سعدت بالفكرة ، ومضت فرحة مثل عاشقة تستعد للقاء فارس الأحلام . مع كل درجة تخطوها نحو الشارع كانت تحس أن قلبها ينبض وينتفض . يا طائرى المعذب .. اهدأ .. دع القلق .. بعد قليل سوف ترى الحبيب . والطبيب . رفّتْ عينها اليسرى مرة ثانية . القلق يضغط على مشاعرها العذراء .. فتاة جميلة فى مثل عمرها ينبغى أن تكون سعيدة ، لكنها معجونة بماء القلق .. وتراب الحيرة . أمها تقول : القراءة أفسدت عقلك وخربت حياتك . لا تدرى أن الأستاذ نبيل محمود هو السبب . بالقراءة استطاعت أن تحلم .. تحلم حلما جميلا ، لكنها فى الوقت نفسه عاجزة عن تحقيق أىّ حلمٍ من الأحلام .

صافح وجهها وجسدها هواء الشارع المشبع بقدر من الحرارة والرطوبة والضوضاء . بدأت تفيق .. أبصرت عن قرب زحاما

وحركة غير عادية . المرور فى الشارع الكبير توقـف . تحلـق النـاس حول جسد مسجى على الأرض . حادث مؤسف .. رجل صدمتـه سيارة .. هذا بعض ما سمعته ، وهى واقفة أمام باب الجمعية . ازداد قلقها .. تضايقت ، لأن الحادث قد يؤدى إلى تأخير وصول الأستاذ نبيل ، بل ربما يؤدى إلى تأجيل الندوة ، التى تستعد لحضورها منـذ أسبوعين .. لا منذ بدأت تقرأ له وتعجب بـه . دفعهـا الفضـول إلى أن تقترب أكثر من مكان الحادث . لم تجد صعوبـة فـى أن تجـد لهـا مكانـاً ، لأن المتفرجين كـانوا يـرون المشـهد الدامـى .. ويـتـركون المكـان لغيرهـم ، حتـى تسـتمر عمليـة الفرجـة . حـين اقـتربت صرخـت .. صـاحت .. نـاحت .. بكـت .. يـا رب هـل هـذا .. مستحيل .. ممكن .. عبـث .. ضيـاع .. فـراغ .. غـير معقـول .. يـاه .. يـا ألله .. علـى بعـد خطـوات مـن ميـدان التحريـر ـ قلـب القاهرة ـ يحدث ... الأديـب الكبير ، هـو الـذى سـقط صريعـاً .. والدماء تنزف .. تنزفُ فى عرض الطريق ..... .

ـ السيارة مرسيدس سوداء .

ـ لا .. أوبل زرقاء .

ـ لا .. كانت شاحنة نقل .

ـ الحادثة لم تكن مصادفة .

ـ كان يجلس بجوار السائق رجل ، يلبس جلبابا وله لحية كثيفة .

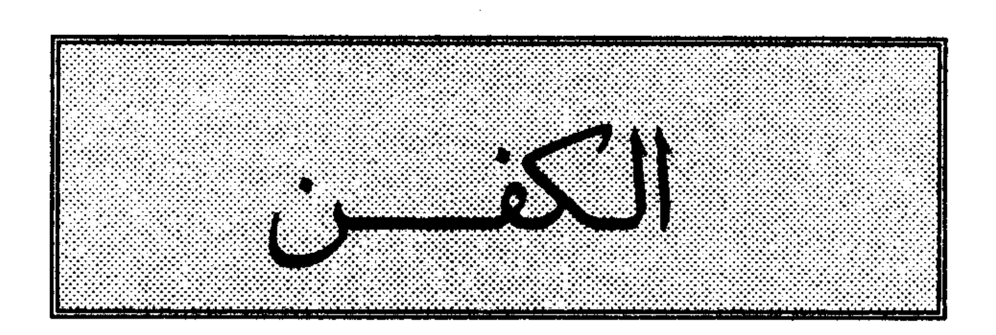
ـ لا .. لم يكن أحد بجوار السائق .

- يا عباد الله .. كل شيء بأمر الله .
- كيف استطاعت السيارة أن تهرب رغم الزحام .؟!
- هذا الزحام لا أحد .
صاح أحد أصدقاء الأديب - وهو يحاول أن يوقف نزيف الدم في رقبته : الإسعاف تأخر .
- الإسعاف قد لا يصل .. احملوه في سيارة خاصة إلى أقرب مستشفى .
ظهر شرطي فجأة ، كأنما انشقت الأرض وخرج منها مثل المارد ، الذي حبسه النبي سليمان . لكنه - كالعادة - وصل متأخراً . صاح بصوت غليظ : لن يتحرك أحد قبل أن يأتي رجال الأمن لمعاينة الحادث .
- لكنك لم تكن موجوداً .
- الشارع كبير .. وعليَّ أن أحرسه من البداية إلى النهاية .
- هل هذه البداية .. أم النهاية ...؟!
لم تستطع حنان أن ترى قلبها ينزف .. وضميرها يرقد على الأسفلت . جرت نحو الباب ، وجذبت اللافتة بحركة هستيرية ، فتمزق الجزء الذي به كلمة « المستقبل » . أخذت تمزق اللافتة جزءا .. جزءا ، وتنثرها في الطريق . جرت مرة أخرى نحو الرجل ، الذي ظلت عمرها تحلم برؤيته . حين أمسى الحلم حقيقة .. صار كابوساً بشعاً . جلست على ركبتيها جلسة الخاشع في صلاة على الأسفلت .. رفعتْ الجسد المسجى إلى صدرها مثل

ثكلى تحتضن قبر الأحلام . لم تكن تصغى إلى تحذيرات الواقفين .. مزقت كم البلوزة ، وأخذت تحاول إيقاف النزيف ، الذى يسيل من رقبته .. وهى تنوح .. وتبكى . الدماء الحارة .. انتقلت من جسده إلى جسدها . ودّتْ لو استطاعتْ أن تقطع شريانها ، حتى تمتزج دماؤه بدمائها . احتضنته أكثر .. وأخذت تقبله فى أىّ مكان تصل إليه شفتاها . الليل يلف القاهرة الساحرة .. الناس سُكارى حيارى .. الجندى - فى بلادة - ينتظر رجال الأمن .. لكن سيارة الإسعاف لم تصل .. ولم تكف دموع حنان .. ولم تتوقف دماء الشهيد ..... (*)

(*) الثلاثاء - أول نوفمبر ١٩٩٤ .

- جريدة « المساء » القاهرة ، العدد (١٣٨٩٥) فى ١٦ / ٥ / ١٩٩٥ .



الكفن

منذ فترة ـ لا يعرف مداها ـ وهو يحاول أن يوطن نفسه اللوامة على الاكتفاء بالموجود ، وزوال الطمع فيما ليس بحاصل ، لأنه ـ ربما بحكم السن ـ صار يعتقد أن أعظم منحة يهبها الله سبحانه لعبد من عباده ، هى أن يمكنه من هواه ، فإنه من اليسير أن يهدم الإنسان جبلا بأظافره من أن يتغلب على هواه .. ذلك ما جعله يحس وهو يعبر الميدان المزدحم ـ ميدان باب الخلق ـ أن هناك أمراً غير عادى . الحزن يفترش الطريق . لم يعد قادرا على أن يحدد سبب القلق الذى يسيطر على مشاعره ، ويلهب أعصابه . الأتوبيسات .. السيارات .. عربات الكارو .. الباعة المتجولون .. الشحاذون .. الذاهبون .. العائدون .. يشكلون ـ فى فكره المتعب ـ صورة مضطربة لوحدة الوجود . تداخل أى شيء فى كل شيء .. الغبار .. الضجيج .. الزحام .. الحر .. العرق .. التلوث . بينما هو تائه بين خواطره القلقة وواقعه المضطرب ، اصطدم بشخص ما . من الصادم .. ومن المصدوم ؟! ظن أنه السبب . بينما يستعد للاعتذار للشخص المجهول ، كان هو الآخر قد وقف . حين تبادلا نظرة خاطفة ، هيىء لهما أن التاريخ بسنواته الخمسين جمع ، فكان لحظة لقاء . عجزا عن الكلام .. صارا مجرد عيون ، تعبر عن

خواطر متناقضة بين الدهشة والفرحة . اللقاء كان صدفة غير متوقعه ، وصدمة غير محتملة . يبدو أن كلا منهما قد اصطدم بالآخر استجابة لنداء مجهول . فى داخل كل إنسان حاسة خاصة ، تحركه فى أوقات الضرورة ، حتى يفعل شيئا ، لابد من عمله فى لحظة ما . النفس البشرية فى أعماقها أجهزة أعقد من الكمبيوتر ، وأشد حساسية من الرادار ، يسميها بعض البسطاء « النداهة » ، وهى التى جعلت كلا منهما يصطدم بالآخر ، حتى يحدث لقاء بين صديقين ، لم ير كل منهما صاحبه منذ .. حوالى ثلاث وعشرين سنة . يؤمن أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، لكن .. كيف يبعث الله الموتى فى الدنيا ..؟! تلك هى المعجزة ، التى شلت حركته وتفكيره إلى حين . بدأ يحا .. يحاو .. يحاول .. ويحا .. ويحاو .. ويحاول أن يلم شتات ذاكرته ، وأن يهدأ حتى يبرد من حرارة نافوخه . غير المعقول .. صار حقيقة مجسدة . هذا هو إبراهيم رشدى ـ الذى ظن أنه مات منذ عشرين سنة ـ يقف أمامه بشحمه ولحمه . صحيح أنه قد تغير كثيرا .. لكنه هو هو .. إبراهيم صديق الطفولة ورفيق الشباب .

من يصدق أن هذا الشيخ المتداعى هو إبراهيم ، صاحب الآمال العريضة ... والأمانى المستحيلة . تمنى ـ ذاتَ يومٍ ـ أن يكون غنيا من أصحاب الأرصدة « Banker » .. وأن يركب عربة فخمة ضخمة « Full - Auto matic » ، تفتح أبوابها وشبابيكها

بالرموت كونترول .. وأن يتزوج قطة شقراء ، ذات شعر أصفر وعيون زرقاء ، عندها « Sex appeal » . السفر سفينة الأحلام .. وفى الأسفار خمس فوائد .. بل قل عشرا أو عشرين . مرت سنون عديدة بعد رحلة السندباد . انقطعت أخباره كلية عن أمه وأخيه الوحيد ، بل حتى عن أعز أصدقائه سمير منصور . سأل عنه .. وكتب إليه .. وكلمه فى التليفون . لا .. لا أحد يجيب .

بعض الأصدقاء المشتركين قال : إنه فى أوربا .. فى الجنة ، حيث الشوارع النظيفة ، والطبيعة الجميلة ، والتفاح الأحمر ، واللحم المحمر ، والسمك المدخن ، والنبيذ الأبيض ، وعطر كرستيان ديور ، يلعب مع بطة ، ويضحك مع قطة . حاول أنْ يفهمه أن أوربا ليست ـ كما يظن ـ امرأة فاتحةَ الذراعيْن ، غير أنهَ ذهب قبل أن يسمع الرد . صديق آخر قال بحزن : إبراهيم صاحبنا .. جن مصور ، يقدر على إدارة المعارك ، ويصمد عند التحدى . ولد مغامر .. أكيد ذهب ضحية مقامرة .. أو نزوة .

ضاعت فى الزحام أخبار إبراهيم ، الذى هرب من حفرة الفقر ، فوقع فى مستنقع الاغتراب . شيـ .. ئـا .. فشيـ .. ئـا .. فشيـ .. ئـا .. فشيئا .. ينسى الإنسان كل شىء . طاحونة الحياة لا ترحم .. والبعيد عن العين ، بعيد عن القلب والعقل . أفاق من خواطره على صوت شحاذ مجذوب ، يغنى بصوت مشروخ :

الورد كان شوك   من عرِق النبى فتّحْ

رغم كل شيء ممكن أو مستحيل .. فإنهما يقفان الآن وجها لوجه في الحي ، الذى عاشا فيه منذ خمسين سنة . تغير إبراهيم .. أين قدّ بطل كمال الأجسام ، والشعر الناعم ، والعينان اللتان يشع منهما إصرار وتحد ؟! ما زالت في الكأس بقية .. القد الوسيم صار هيكلا نحيلا ، الشعر الكثيف تساقط معظمه .. وما بقى اشتعل فيه الشيب ، الوجه الضحوك المتفائل أضحى مجعدا عابسا ، العينان انكسر فيهما بريق الطموح .

وقف كل منهما يبحث في الآخر عن شيء مفتقد ، كما يحدث ـ عادة ـ عندما يلتقى الأصدقاء والأحباب بعد فراق طويل . الجو حار خانق .. والميدان مزدحم مضطرب .. وذلك ما زاد مشاعر اللقاء اشتعالا واغترابا في آن واحد ...!! في العيون دهشة وحسرة .. وفي القلوب لوعة وغربة . صاحا في وقت واحد :

ـ إبراهيم .. !!

ـ سمير .. !!

حين تعانقا .. أنكر كل منهما صاحبه . ماذا يفعل القدر بالبشر ... ؟! البعيد في بلاد غريبة من المعقول أن يهزل ويغترب ، لكن القريب الذى يعيش في وطنه .. بين أهله وناسه ، لم ينسحق وينكسر .. ؟! أمران أحلاهما مر : من يرحل يغترب .. ومن يبق ينضرب . البشر قطع شطرنج في يد لاعب ماهر . الكل يتحرك .. ويحترق .. في عصر السرطان ، والإيدز ، والطاعون ، وحمى

الوادى المتصدع ، وتلوث البيئة ، والفساد المنظم ، والظلم الديمقرطى .. عصر الانكسار والانهيار .. وسيطرة الشطار .. وسيادة الدولار . رغم الشوق واللهفة .. لم يكن أحدهما أو كلاهما قادرا على أن يطيل فترة العناق . مل .. يمل .. مللا .. فهو مملول . جفت الأشواق فى الأحداق .. ضاعت الكلمات وسط الآهات . آه .. آه .. هل يقدر غريق أن يحتمى بغريق ؟! لابد أن يحافظا على ما بقى ، حتى لو كان قشة .

- متى عدت يا إبراهيم ؟
- لا أعرف على وجه التحديد .
- لماذا لم تتصل بى ؟
- لا أعرف .. لكنى سأحاول .
- حدثنى عن أحوالك .. وأخبارك .
- عندما نلتقى .. عندى موعد مهم الآن .

ذاب الصديق فى زحمة الميدان . شد انتباهه مرة أخرى صوت المجذوب :

أروح لمين يا احمد   يوم طلعة المشهد
والأنبيا تشهد   إنك رسول الله

بدا له المجذوب - رغم فقره وجهله - أكثر سعادة منهما . لماذا .. لا يدرى .. مجرد إحساس . تذكر أنه ودع إبراهيم دون أن يسأله عن محل إقامته أو رقم تليفونه . كيف يكون العزيز عزيزا .. وأنت

لا تعرف له عنوانا ؟ المودة .. صلة وصلاة ، وعدم اللقاء .. هجر وفناء . لكن .. إذا كان سمير قد نسى أن يسأل صديقه عن العنوان .. فلم نسى هو الآخر ؟! هل أحدث اللقاء هزة فى الأعماق ، جعلتهما ـ دون وعى ـ غير راغبين فى التواصل ؟! مستحيل .. فقد كانا صديقين حميمين .. بل كانا أقرب من الإخوة الأشقاء . هناك شىء ما خطأ .. شىء واحد .. لا .. لا .. أشياء .. وأشياء . يا خفى الألطاف .. نجنا مما نخاف . نهاية الطريق .. فقد الصديق .. واشتعال الحريق .

اكتشف أنه كان يقف مع صديقه أمام محكمة باب الخلق . فى المحكمة يشكو المظلوم الظالم .. لكن إلى من نشكو من حكم علينا بالعذاب .. والاغتراب .. والعيش الهباب ؟!

نظر فى سخرية إلى المحكمة ، التى بدأ يشك أن ميزان العدل فيها متعادل ..!! الزحام زاد من إحساسه بالحر . هذه حرارة جهنم ، وليست حرارة يوليو اللعينة . كاد يسقط من يده شىء .. آه .. تذكر كيف استطاع أن ينسى .. كيف ؟! حين أمسك اللفة ـ بحرص ـ قبل أن تقع على الأرض ، تذكر أنه خرج ليشترى كفنا لجاره الطيب عمر عبد الجواد ، الذى أوصاه أن يحضر الكفن والحانوط من حى الحسين .. شىء لله يا أهل الله . تذكر أنه تأخر فى أداء المهمة ، التى خرج من أجلها . إكرام الميت دفنه .. والدفن لن يتم بغير الكفن . الكل الآن فى انتظاره . الإنسان ذلك المخلوق

العظيم ، بمجرد أن يتوقف النبض فى العروق يحاول أن يتخلص منه أعز الناس إليه وأقربهم لديه .. الذين بنى لهم الدار ، يريدون أن يتخلصوا منه ، حتى يسكنوها وحدهم .. الذين جمع لهم الأموال ـ بالحق أو بالباطل ـ يريدون أن يقتسموها بينهم .. حتى المرأة التى حل ضفائر عذريتها ـ ربما ـ تحاول أن تنكح زوجا غيره . غاض الوفاء .. الكل باطل وقبض الريح .

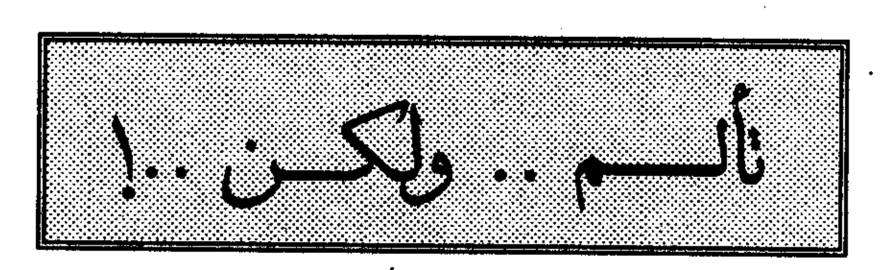
أخذ يسرع فى مشيه ـ وقد ساوره قدر من تأنيب الضمير على ما فرط فى حق صاحبيه : الميت والحى . أصابته رعشة مفاجئة حين أمسك الكفن بكلتا يديه ، وضمه إلى صدره ، حتى لا يقع على الأرض . ملأت رائحة الحانوط فتحتى منخاره . ازداد إحساسه بالموت والفناء . مات .. يموت .. موتا .. فهو ميت ، والميت فى حاجة إلى كفن . تعلقت حدقتا عينيه وفتحتى منخاره بالكفن بين يديه . تساءل فى أعماق نفسه .. ترى من يكون أحق بالكفن ..... ؟! (*)

(*) كتبت فى ـ باليرمو .. صقلية ، الاثنين ١٢ / ٩ / ١٩٩٤ .

نشرت فى :

ـ جريدة « الأسبوع الأدبى » : سوريا ـ العدد ٤٥٩ فى ٢٠ إبريل (نيسان) ١٩٩٥ .

ـ مجلة « الهلال » : القاهرة ـ عدد يوليو ١٩٩٥ .


تألــم .. ولكــن ..!

وصل مبكراً ـ كعادتـه . أول مـن يدخـل « مصلحـة المسـاحة » وآخر من يغادرها . منذ حوالى عشرين عاما أو يزيـد ـ لا يستطيع أن يتأخر إلا من أجل الشديد القوى . بينما كان يصعد السلم ـ فى بطء وتكاسل ـ لاحظ أن فى بئر السلم كمية من الكراسى والمكاتب المكسرة ، تكفى لتربية مائة فأر أسود . اقترب من حجرة مكتبه ـ مكتب شئون العاملين . رأى « عم ربيـع » فـراش المكتـب منهمكاً فى عملية النظافة الشكلية . حياه بيده اليمنى ، التـى تحمـل جريدة الصباح ، فرد عليه ـ وهـو يحاول أن يجفـف الماء من على أرض الطرقة ـ بفرحة طفل : صباح الخير يا أستاذ علـى ... نهـارك أبيض بالصلاة على النبى .

تعرف قدماه الطريق . خلف المكتب وضع جسـده المرهـق فـوق كرسى خشبى ، ربطه بقطعة من خيط الدوبارة . صارت بينه وبين الكرسى ألفة ومودة . من الصعب أن يفرط فيه .. أو يجعـل غـيره ، ينـال شـرف الجلـوس عليـه . هـو والكرسـى يعيشـان حالـة « محلك سر » . أخذ يرتب الملفات ، حتى لا تتبعثر الأوراق .. أو تضيـع . أوراق شئون العـاملين لهـا أهميـة خاصـة . هـذا ... « عصـر الأوراق » . الأوراق .. تحـرك مصـير البشـر . الميـلاد ..

ورقة ، التعليم .. ورقة ، الزواج .. ورقة ، الوظيفة .. ورقة ، جواز السفر .. ورقة ، حسن السير والسلوك .. ورقة ، حتى الموت لا يتم إلا بورقة . ورق .. ورق .. يا عصر المعلومات .. وزمن المخابرات !!

أيقظه عم ربيع من شطحاته ، وهو يجفف كفيه فى صدر بدلته الصفراء : مثل كل يوم يا أستاذ على ؟!

أومأ له برقبته ، وهو يعطيه الجنيه الأخير . سخر من نفسه .. ومن عم ربيع .. ومن حالته البائسة : نعم مثل كل يوم .. سندوتش فول .. وآخر طعمية .. ولا تنس الطرشى .

كيف تتغير الدنيا .. وهو منذ حوالى عشرين سنة ـ هى مقدار عمره الوظيفى السعيد ـ يأكل يومياً .. « واحد فول .. وواحد طعمية .. » ؟! إلى أى حد ، تركت هذه المأكولات الشعبية أثرها فى مكوناته البيولوجية والفكرية ..؟! بلع ريقه حين تذكر منظر الطعمية تقلى فى الزيت الحار .. وقدرة الفول فوق النار تخرج منها نكهة الفول . ابتسم فى داخله : صحيح .. من لم يمت بالسيف ، مات بالفول ..!!

فى انتظار مجىء الزملاء .. وعودة عم ربيع ـ أخذ يتأمل المكاتب خالية من أصحابها . بدأ يتذكر كل واحد من خلال مكتبه الحزين . تجلس بالقرب منه الآنسة العانسة جيهان رمضان . وصلت إلى مشارف الخمسين . وهى أول من يعلم رخص سعرها فى سوق الحريم . نسيت أنوثتها وعنوستها . تعاملت مع الجميع بقلب

مفتوح ، كأنما هى أخت .. أو أخ لهم . أكثر من هذا إنهـا تتعـامل بـروح أم : تعطـى .. ولا تـأخذ ، تجيـب .. ولا تسـأل . بجوارهـا يجلس الأستاذ سعد عرفة .. وهو أيضاً رجل متعـاون .. متفـاهم .. طيب ، لكن طيبة نفسه عكرتها كومة مـن الأطفـال ، لا يـدرى .. كيف ولدتهم زوجته ، غـير أن الـذى يدريـه .. ويدركـه كـل مـن يراه ، أنه قد انهد حيله من أجل تحقيق الحد الإنسانى الأدنى لنصف دستة من الأرانب . فى المكتب الثالث مدام سامية سليمان .. سيدة مسيحية متوسطة العمر والجمال والذكـاء . قليلـة الكـلام .. نـادرة الحركة . شعارها غـير المعلـن : « يـا نحلـة لا تقرصينـى ، ولا أريـد منك عسلا ..!! »

المكتب الأخير .. المكتب الوثير .. الفخم الضخم ، الذى يختلف شكلا وحجماً ، مكتب الأستاذ حامد العنتبلـى ـ رئيـس القسـم ـ خرب الله بيته . حامد .. هذا ليس الأقدم .. أو الأفضـل فـى كـل الزملاء ، لكنه الأكثر نفاقاً والأشد مكراً . نقل إلى إدارتنا من ديوان المحافظة .. لكن البعض يقول إنه نقل من وزارة التموين بسبب كثرة الشكاوى فى حقه . جسمه الضخم .. وكرشـه المنتفـخ ، يؤكـدان بعض ما يقال . يبدو أنه جاء لينتقم . أشـعل نـيران الفتنـة فـى كـل اتجاه . عنده قدرة غريبـة علـى الجـدل والنقـاش . مغـرم بالتعبـيرات الإنشائية والبغبغة اللفظيـة . لـه مـع كـل موظـف فـى الإدارة كلهـا موقف .. أو موقف مضاد . يستطيع أن يُعقّد أى أمـر سـهل ، وأن

يدين كل برىء . البشر .. فى عينيه السوداوين ، لا يفعلون شيئا من أجل الله . من العجيب أنه يحقر معظم زملائه .. وينافق - بشدة - كل رؤسائه . شعاره « إذا أنت لم تنفع فضر .. » بالطبع هو ، لا ينفع إلا نفسه . وضرره موجه إلى كل الجهات ، لذلك أسماه بعض من نالهم أذاه « حامد السمّاوى » . العجيب أنه كلما اشتد إيذاؤه للبشر ، امتد نمو جسده ، كأنما يطول بالعرض . إذا أبصرته عن بُعد قريب ، وهو يجر ساقه اليسرى - التى بها عرج خفيف - حسبته قِربة منتفخة ، تتدحرج على الأرض . لم يكتف بأن انتزع منه رئاسة المكتب .. لكنه فيما يبدو أراد أن يؤكد لسيادة مدير المصلحة - أنه جدير بالرئاسة ، ويعرف كل ما يفعله الموظفون فى مكتبه . منذ أسبوع صنع له مشكلة مركبة ، وشكاه إلى سيادة المدير العام بحجة تعطيل العمل ، وأنه يحرض الموظفين على طلب علاوة استثنائية . أكثر من هذا .. اتهمه بأنه يلمح ، تلميحات ذات مغزى غير أخلاقى للزميلة الفاضلة الأستاذة جيهان رمضان . ورغم أن التحقيق لم يثبت شيئا من كل هذه الافتراءات .. لكن الدخان إذا طار فى الهواء ، فلا بد أن يخلف رائحة خبيثة ... !!

العجيب أن الأستاذة جيهان كانت أجرأ فى التصدى للإشاعة من الأستاذ على نفسه . قالت لعدو البشر فى وجهه : سامحك الله .. حسبتُ لك عقلا .. فلا أنا .. ولا الأستاذ على ، يصح علينا هذا الكلام . ألا تستحى يا رجل .. ألا تخاف الله ..؟!

رد متبجحاً ــ وهو واقف خلف المكتب ، يحاول أن يدخل الزرار ـ بالقوة ـ فى عروة الجاكتة ، التى ضاقت عليه : يا أستاذة .. يا فاضلة « تعمد أن يقولها بهدوء شديد .. » نحن نعمل فى مصلحة حكومية محترمة .. الدولة وظفتنا هنا لنحافظ على الحقوق والمبادىء .. فى عصر العلم والإيمان .

يا واطى .. يا حقير .. هل يعرف أمثالك الحقوق والمبادىء .. أو العلم والإيمان ؟! صدق من قال : « لا تعلموا أولاد السفلة ، وإذا علمتموهم فلا تولوهم القضاء » ..!!

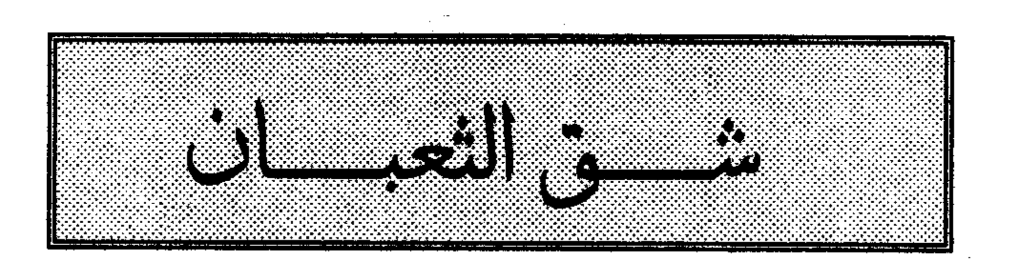
هذا الشخص الكريه ، لم أحاول ألبتة أن أتعامل معه بخير أو شر . أنا فى حالى ، لكنه .. إنْ تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .
هذا الكائن الخرافى بطل العصر الانفلاتى .. فى الزمن الآتى ــ يحرص على مظهره الخارجى ، لكنه شاهد أكثر من مرة ملابسه الداخلية ــ التى تظهر أحياناً بسبب انبعاج كرشه ــ ممزقة .. ومتسخة . لا يظن أن هناك أحداً فى المكتب قد نجا من حقده الأسود . ظن فى البداية أن البعُد عنه غنيمة .. لكن الأستاذ على عبد الرحمن أدرك الآن فقط أن من يتغدى بغيرك ــ إذا لم توقف شره ـ فسوف يتعشى بك . أصبح يدرك أنه لا بد أن يواجهه .. ويوقفه عند حده . مشكلته ـ كما تراءت له ـ أنه رجل طيب ، لا يعرف قلبه طريق الكره ، ولا يدرك عقله سبيل الشر . لكن لا بد .. من لم يتذأب تأكله الذئاب . الدنيا تغيرت والقيم تبدلت ..

صار عاليها أسفلها .. وأصبح الأوْطىَ هو الأعلى ..!! مستحيل .. مستحيل سيظل فى الدنيا خير ، إذا حاربنا من أجله ، لأننا نعيب الزمان .. والعيب فينا .

أحس رغم نقاء الضمير وطيبة القلب أنه يتألم ، وأنه يجب أن يتعلم - من جديد - كيف يعامل البشر . قال لنفسه - وهو يتأمل عم ربيع قادماً من بعيد ، يحمل ما يحمله كل يوم : يا قلبى الحزين .. تألم ، ولكن حاول .. حاول أن تتعلم فن الكره ..!! (*)

(*) يوم الأحد ٢٨ أغسطس ١٩٩٤ .

- نشرت فى جريدة « الأهرام المسائى » فى - ١٥ / ٢ / ١٩٩٦ .



شـــق الثعبـــان

(صرخة فى غرفة زرقاء)

أخذتُ أتأمل الوجود العدم .. بملابس الفرح المأتم . الحد الذى وصل إليه علمى ـ فى هذه اللحظة ـ هو أننى علمت بأنى لا أعلم شيئاً ..!! الرجل .. الذى قاد جيشاً ، وحمل سيفاً ، وقال : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ...؟! » هزموه .. وعزلوه .. ونفوه ، فكيف تقدر فتاة صغيرة مثلى أن تقول « لا » ..؟! لا .. لا أقدر .. ولا أستطيع أن أقول ذلك لأبى ، الذى يريد أن يدفننى حية ، ويئد كل طموحى وآمالى . جريت فجأة بملابس العرس ناحية الحمام . الدار مزدحمة بنساء وفتيات من الأهل والجيران ، جئن يحتفلن بليلة فرحى . لا أدرى لم ذكرنى ثوب العرس بملابس الكفن . ثوب العرس يخنقنى . العقد اللولى ضاق حول رقبتى .. ثعبان يمص دمى . لم أبال بدهشة عجائز الفرح . واحدة قالت حين رأتنى أجرى سريعة : الفرحة لا تسعها .. لازم محصورة يا حبة عينى .

لم يستطع الباب المغلق ـ باب الحمام ـ أن يحول دون صوت الفتيات ، يغنين ويرقصن :

يـا حِلـوة ضُمّـى الغلّـه　　عُـودْ علـى عـود نتسـلّى
سَبلـه وسَبلـه ويااللـه　　يـا حِلـوة ضمـى الغلـه
يـا حِلـوة ضُمـى الغلـه

لا أدرى لماذا أصرَّ والد العريس على أن أحضر ـ مع الرجـال ـ لحظة عقد القران . هذا العريس الماسـخ .. لعبـة فـى يـد أبيـه ، هـو الذى اختارنى له ، وهو الذى أقنـع والـدى بقبـول الصفقـة ، وهـو الذى دفع ثمن الشبكة .. واختارها ، وهو الذى اشترى الأثـاث فـى يوم واحد : أبوك يا هدى موظف بسيط ، لكنه إنسان طيـب وابـن أصول .. وقريبنا كمان . هكذا قال حين رأيته أول مرة منذ شهر .

لم أر العفاريت فى حياتى ، وإن سمعـت عنهـا كثيراً ـ فـى مرحلـة الطفولة ـ من جدتـى ، التـى ربتنـى بعـد وفـاة أمـى . كـل مـا قلتـه يـا جدتـى العزيـزة عـن العفـاريت ، ينطبـق علـى هـذا الكـائن الخرافى .. تاجر .. شـاطر .. يعـرف كيـف يبيـع ويشـترى ، ومـع ذلك اسمه الحاج عوض الله الفار ..!!

جلستُ فى الحجرة تائهة مـع مجموعـة قليلـة مـن رجـال الأسـرة الكبار . تأملتُ الحجرة التى شهدت كل أيام وليالى المذاكرة . خُيل إلىّ أن حوائـط الحجـرة قـد انهدمـتْ ، وصـار عاليهـا سـافلها .. وسافلها عاليها . أخذتْ الحجارة تقذف كل الموجودين بلا رحمة . أحسست أنى وحيدة .. غريبة ـ رغم أنى ما زلت فى بيت أبـى ..

ووْسط أهلى وأقاربى . لم أكن قادرة على أن أرى .. أسمع .. أعرف . توقف الغناء عندما جاء المأذون . المأذون فى الماضي كان رجلا له هيبته بزيه الأزهرى وعمامته البيضاء . هذا المأذون « الأفندى » ـ يلبس بدلة صيفية زرقاء ، باهت لونها ، انحشر فيها ، وبرزت من بين الأزرار أجزاء من كرشه المنبعج . بعد أن وضع منديلا أبيض على كفى أبى وعريس الغفلة .. أخذ يقول كلاماً ، كنت أسمع بعضه ، ويتوه منى أكثره . يتكلم كأنه يقرأ فى كتاب القراءة الرشيدة ... الحمد لله الذى أحلَّ النكاح ، وحرم السفاح .. تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة .. قل ورائى يا أستاذ عبد الله : زوجتك يا أستاذ عطية ابنتى وموكلتى البكر الرشيد الآنسة هدى على كتاب الله وسنة رسوله ، وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وعلى الصداق المسمى بيننا عاجله وآجله .

ثم نظر إلى الناحية الآخرى ، فتحاشيت أن أنظر إلى الشخص ، الذى يريدون أن يربطونى به منذ هذه اللحظة اللعينة .. أخذ يردد خلف المأذون بصوت مثل نقيق الضفادع : وأنا قبلتُ منك زواجها لنفسى .. على كتاب الله وسنة رسوله وعلى مذهب ....

يا ألله .. كيف يكون هذا العقد الباطل صحيحاً ..؟! تجارة الرقيق ما زالتْ موجودة ، حتى لو ادعينا أنها على مذهب الإمام

أبى حنيفة النعمان ..!! بعد أن خطف المأذون المودرن المنديل الأبيض ، خرجتُ بسرعة ، وسمعت أبوه يضحك ـ وقد برزتْ أسنانه المتآكلة ـ قائلا : ما زالت صغيرة .. تريد أن تفرح مع البنات .

يا ابن الكلب .. أنا صحيح صغيرة ـ فى الثامنة عشرة ، لكنى أفهم أحسن منك . ومن عائلة الفار ، التى تدعى أنك كبيرها . وأنت يا بابا .. يا رجل يا طيب .. أنت السبب .. أنت لا تدرى هل هذا العقد صحيح أم لا ..؟! وهل هو عقد نكاح .. أم سفاح ..؟! ويا من زوجك أبوك .. هل أنت حقاً عطية أم رزية ؟!

حين أُغلق باب الحمام ، أحسستُ أنى أشم هواء نقياً .. وأنى استعدتُ قدراً من كرامتى المهدرة . نظرت إلى مرآة مشروخة فوق الحوض ، فرأيت وجهى ممزقاً وجمالى مشوهاً . ليست هذه صورتى .. وما تلك أنا .. مستحيل ..!! هدى عبدالله فتاة أحلام كل شبان الحارة ، التى تمنت أن تكون طبيبة . وشهد لها معظم المدرسين بالذكاء والتفوق ، كما شهد لها كل المعارف والأقارب بالكمال والجمال . وكان كثير من المقربين ينادونها منذ كانت فى السنة الأولى الثانوية .. « الدكتورة هدى » .

كل هذه الآمال بدأت تتبخر وتتلاشى منذ قتل أبى طموحى ، وأراد أن يدفننى حية بالزواج من هذا الخنزير الممسوخ .. عديم اللون والطعم والرائحة . إنه صورة كريهة لأب مستبد مستغل .

وهو يجلس الآن تائهاً فى بدلة جديدة اشتراها له أبوه - لأول مرة - لأن هذا فرح ابنه البكرى . صوت الغناء لا يزال يأتى من قرب بعيد ، يخرق أذنى ، ويلهب مشاعرى :

وريني شعرك ورينى   لا تكونى قَرعَهْ تغشينى
ترجعى تانى تقول لى   ما اعرفش اضم الغله
يا حلوة ضمى الغله

عرس مزيف .. وفرح كاذب .. وعقد باطل .. باطل .. باطل رغم كتابة المأذون وموافقة الأب وشهادة الأهل . بكيت عندما سألونى : من توكلين يا عروسة ؟! سقطت الدموع من عينى .. فأنا سريعة البكاء بسبب أو من غير سبب . لكن العفريت المحتال أنهى الموقف قائلا : إنها دموع الفرح .. ما زالت صغيرة .. السكوت علامة الرضا .

هذا الموكب الجنائزى هو الكرنفال البهيج ، الذى - طالما - تمنيته ، والفارس النبيل الذى عشقته فى الخيال صار عطية الفار فى الواقع . بدت المسافة بعيدة .. بعيدة جداً بين الحلم والحقيقة . تمنيت صدراً حنوناً أبكى عليه . أمى ماتت .. أشكى .. أبكى .. أحكى .. لمن .. لمن ..؟! كل شىء يهتز فى عينى . صداع مدمر .. صراع قاتل . كدت أسقط على الأرض . حاولت أن أتماسك . امتدت يدى ببطء ثقيل على الحائط الأملس . جدار الحمام طلاؤه مشوه ومتشقق .. والرطوبة ، تزحف عليه من كل

اتجاه . الضوء الشاحب يعشى عينى . بكى بعضى على بعضى معى . تخيلت طيفاً بعيدا .. بعيدا لماما ينادى : أنا فى انتظارك .. تعالى .. تعالى لماما يا حبيبتى ..!!

امتدت يدى لتمسك أى شىء حتى لا أسقط . القشة التى أنقذتنى من السقوط ، كانت خرطوم أنبوبة البوتجاز . حاولت أن أتماسك .. حاولت وحاولت .. فإذا بالخرطوم يخرج فى يدى . لست أدرى .. كيف استطعت أن انتزع الخرطوم من مكانه . استعدت قدراً من الاتزان . تنفست بصعوبة . فتحت الحنفية .. غسلت وجهى بالماء ...

ورينى وسْطك ورينى - لا تكونى عُوجه تغشينى
ترجعى تانى تقوليلى ما اعرفش اضم الغله
يا حلوه ضمى الغله

لا أدرى لم تذكرت مسرحية « مصرع كليوباترة » .. حين أمسكت خرطوم البوتجاز ..؟! بدا مثل أفعى رقطاء ، تتحرك فى بطء . ضممته إلى صدرى المعذب . قلبى يخفق ويضطرب ، ويدى تهتز وترتعش . كليوباترة يا جدتى العزيزة .. كنت على حق .. فماذا يفعل الإنسان حين تبدو له الحياة مستحيلة ؟! لا شىء سوى الانتحار أو الجنون ..!!

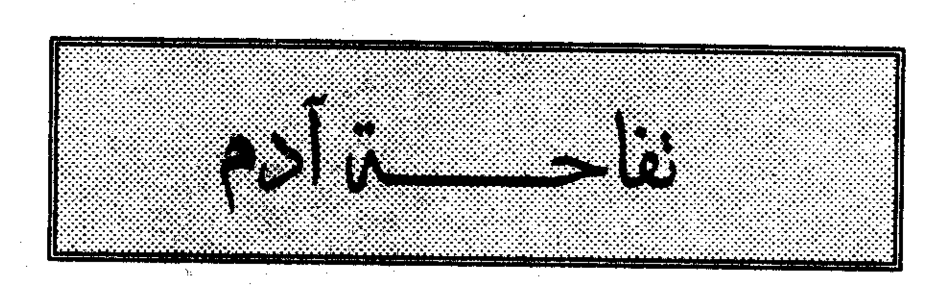
الملكة العظيمة أبت أن يمرغ أوكتافيوس أنفها فى الطين حين يحملها إلى روما أسيرة . حركة واحدة بيدى ، وتنتهى هذه المسرحية التراجيدية . الحياة ممر مظلم بين فناءين . من الفناء إلى الفناء نصير . الموت أو الجنون .. ارتعشت يدى وأنا أحاول أن أفتح منظم الغاز . تراجعت .. وسحبت يدى بسرعة . هدى .. اعقلى .. ماذا سيقول الناس ؟! هدى الجميلة .. العاقلة ، تفعل هذا يوم فرحها . حاولت أن أتراجع .. وأن أستعيد توازنى ، لكن صورة العفريت الأزرق ظهرت أمامى .. وكلماته ترن فى أذنى « ما زالت صغيرة .. السكوت علامة الرضا » . لا .. لا .. أيها الفأر اللعين .. ليس السكوت - دائماً - علامة الرضا .

أخذت الصورة الملعونة تمتد وتكبر .. تمتد وتكبر .. تمتد وتكبر .. وصوته الرعد يصم أذنى .. « مازالت صغيرة .. السكوت علامة الرضا » . امتدت صورة العفريت من الأرض إلى السقف . كليوباترة احتضنت الأفعى . مصيبة الموت أهون من كارثة الأسر . بعض السم علاج لبعض . تعالى حية الوادى . أكون .. أو لا أكون .. تلك هى المشكلة . أكون مرة واحدة .. وأخيرة .. شجاعة . الموت حياة ، أفضل ألف مرة من الحياة موتاً . ظهر طيف أمى مرة ثانية .. فتحت لى ذراعيها باكية : تعالى يا

حبيبتى .. تعالى إلى حضن أمك . أخفت صورة العفريت ملامح طيف أمى الحزين .

جلست بالثوب الأبيض على أرض الحمام المبتلة بالماء الوسخ بجوار البلاعة . فتحت محبس أنبوبة الغاز .. احتضنت الخرطوم .. وأسندت رأسى الملتهب على الجدار الرطب . أخذت أرتعش .. أنتفض .. أتنفس بصعوبة .. بصعوبة ، وأنا أتمتم : سامحنى يا بابا .. سامحنى يا ... وكان آخر .. صوت .. سمعته : « يا حلوة ضمى الغلةَ » .... (*)

(*) الآربعاء ٢١ / ١٢ / ١٩٩٤


تفاحـــــة آدم



جلس سيد وحيدًا فى شقته يعدّ اللحظات . سوف تأتيه الإشارة من الشقة الأعلى . الحبّ يصنع المعجزات . تفاحة وعدته بالحب والزواج . جميلة وكلامها حلو ، لكنها لا تنيله حتى القبلة . هذه ليلة التنفيذ ...!! عرفها صدفة عندما تدخّل أكثر من مرة لفض المعارك ، التى تحدث دائما فى وقت متأخر من الليل - رغم أنهما متزوجان من ثلاثة أشهر . اقترب منها .. واقتربت منه . تفاهما .. واتفقا .

- أحبك يا تفاحة .
- وأنا أيضا .. لكن لا أستطيع أن أقولها ، وأنا زوجة للحلوف .
- لابد أن نتخلص منه .
- اقتله .. عندى سكينة تذبح جملاً .
- يجب ألاّ .. تكون للجريمة ذيول .

تداخلت الرغبة مع الرهبة .. واختلط الحلم بالكابوس ...!!

أخذ يدخن سيجارة محشوة بالحشيش ، وهو يتأمل فوضى الصالة .. لاشىء فى مكانه .. ولا شىء يبدو متسقا مع الآخر ، فقد اشترى الأثاث على دفعات من بائع روبابيكيا متجول . كليم باهت ممزق يغطى مساحة صغيرة من البلاط ، عليه فردتا شبشب

مختلفتان ، وحـذاء ريـاضى ، وجـورب وسـخ .. وبعـض الجرائـد .
طال انتظاره ، لكن .. الموعد لم يحن بعد .

مضى أدهم يتناول سحوره بشهية واستمتاع .. فكل شىء فى رمضان الكريم له نكهة خاصة - يعرف هذا جيـدا منـذ كـان طفـلاً فى القرية ، لكن شهر رمضان فى المدينة غريب مثله . تأمل زوجتـه الجميلـة فـى قميـص نـوم أحمـر بعـين شـبقة . لا يـدرى لم تعجلـت تفاحة ، وأعدت السحور فـى هـذا الوقـت المبكـر .. كمـا لا يعلـم سبب كثرة الطعـام : فـول بـالزيت .. جـبن أبيـض .. زبـادى طازج .. بطاطس محمرة .. خس .. فجل . الخس والفجل يقويـان فحولة الرجل . القميص الأحمر يشف عن مفـاتن الجسـد المرتـوى . حلمتـا الثـدى برزتـا فـى تحد خلـف قمـاش النـايلون . تفاحـة .. عنيدة .. عصية عليـه .. يبـدو أنهـا تريـد أن تكـف - الليلـة - عـن عنادها . مدت ذراعيها العريانتين فى دلال ، فبرزت شـعيرات صغيرة تحت الإبط :

- كل يا أدهم .. زبادى صنعة إيدى .. أيوه والله .. عملته من أجلك .

أصر على الزواج منها . كانت أجمـل فتيـات الدنيـا فـى نظـره . استطاع أن يفـوز بهـا دون كـل شباب القريـة . الحلـو لا تكمـل حلاوته .. إحساسها المتضخم بالفتنة والأنوثة جعلاها راغبة فـى أن تستمع إلى كل كلمة .. تتغزل فى مفاتنها . تعلق على ما تسمع - دائمـا - بضحكـة مبتسـمة كأنمـا تقـول : هـل مـن مزيـد ...؟!

كل شيء .. كل شيء فيها جميل . ليست طويلة ولا قصيرة .. لا نحيفة ولا سمينة .. كل شيء فيها بمقدار .. تبارك الخلاق . تربعت في قلبه منذ رآها .. امتلكها دون كل شباب القرية .. وتزوجها رغم أنها ظلت فترة ، لا توافق على خطبته لها . يغار عليها حتى بعد أن جاء بها من القرية إلى المدينة . لم تكن تحتشم فى كلام أو لبس أو زينة . الفتنة والرغبة والشباب إذا اجتمعت فى امرأة تكون مثل سفينة تحركها ريح عاصف . يجن جنونه حين يأتى على غير موعد ، ويراها واقفة فى الشباك أو جالسة فى البلكونة .

عندما يثور يضربها بنفس القدر الذى يحبها به . الغيرة مرة .. مدمرة . حيرة بغير حد يحتار فى أمر زوجته ، فهى تغريه بدرجة يكاد فيها أن .... يحاول أن يلتقى بها بعد أن تكون قد لبست قميص النايلون ، وأطلقت شعرها ، وزينت وجهها ، ووضعت العطر على صدرها وتحت إبطيها . لكنها تفعل ذلك ، ثم تلف نفسها فى ملاءة زرقاء من الرأس إلى القدم .

لم تعد أعصابه قادرة على مقاومة الفتنة . سأل نفسه أكثر من مرة : إذا كانت تفاحة لا ترغب فىّ .. فلم تثيرنى إلى هذه الدرجة ؟! تجرأ ذات مرة ، فردت عليه قائلة : أتزين لنفسى ...!! ابنة الكلب هذه .. تقول أحيانا كلاما لا يفهمه . ليته ما أجبرها على الزواج .. وباع من أجل ذلك الفدان الوحيد الذى ورثه عن

أبيه . الكـل يحسـدونه لأنـه فـاز بمهـرة أصيلـة . الخيـل أنـواع .. لا يستقر على ظهرها إلا من يستطيع أن يروضها .

الملاءة الزرقاء تحول - دائمًا - بين المـاء البـارد والجمـر المشـتعل . صار يبكى ويشكو - كل لحظة ــ مما هـو محسـود عليـه . يبـدو أن تفاحة قد ندمت الليلة ، فقد زارتهـا أمـه أول أمـس ، وأوصتهـا بـه خيرا ... هذه بداية الفرج .

اغسلْ يديك واسبقنى على السرير ، حتى أعمل لـك كوبـا مـن الشاى المضبوط .

- يعنى راضية علىّ ..!!

عـادت .. فوجدتـه مضطجعـا بملابسـه الداخليـة . مـدت يدهـا فسبقتها رائحة العطر : اشربْ يا حبيبى .. مطرح ما يسرى ....

كما ينتظر المنحوس ليلة الفرج قال : تعالى بجانبى ....

انتفضت واقفة :

- بعد أن تنتهى من شرب الشاى .. أكون قد انتهيت من غســل الأطباق .

تأمل صورته المنعكسة فى مرآة التسريحة . كلما أخذ رشـفة مـن الشاى أحسّ أن رأسه يهتز وعيونه يداعبها النوم . طبـق الفـول هـو السبب .. ليتنى ما أكلته . شيئا فشيئا .. غابت ملامـح الحجـرة .. وأضواء الأباجورة .. والرغبة فى انتظار ساعة الأُنس .

* * *

فتح الباب فى خفة ، وأغلقه فى هدوء . الضوء شاحب والهدوء يفترش البيت فى الثانية والنصف من صباح الجمعة اليتيمة . التقت معه فى منتصف الطريق . تأملت هيكله العريض وقامته الطويلة . الحيرة والقلق يرفرفان فى عينيه . رغم الضوء الشاحب كان يعرف المكان جيدا . جلسا فى لحظة واحدة متجاورَيْن على كنبة الأنترية فى الصالة . سكتت الألسنة ، وتكلمت العيون . اقتربت منه .. سرت الحرارة من القدِّ المشتعل إلى الجسد المرتعش .

- إنْ كنتَ خائفا .. فانسَ ما اتفقنا عليه .

- أو ... أول مرة ..

- كنْ شجاعا من أجل خاطرى .

- هاتى الفوطة .. وتعالى معى .

- لا أقدر .. أنتَ صاحب الفكرة .

أدهم الذى منى نفسه بليلة حب ولقاء بعد أن أكل الفول والخس والفجل والزبادى صار فى سابع نومة .. ممددًا بملابسه الداخلية . فى الضوء الشاحب غطى جسده بملاءة زرقاء . تردد سيد وهو يحاول أن يلف الفوطة حول رقبته . جاء صوت تفاحة مضطربا وهى واقفة لدى الباب الذى يفصل بين الحجرة والصالة :

- بسرعة .. لا بد أن ينتهى كل شىء قبل طلوع النهار .

أخذ يشدّ الفوطة بقسوة حول رقبته .. لم يُبدِ النائم أية مقاومة . شل المخدر كل قدراته . كلما استسلم القتيل ازداد القاتل قوة .

تخيل تفاحة نائمة على هـذا السرير نفسـه ، تمد يديهـا فـى دلال : هئتُ لـك . مـدَّ ذراعيـه يحتضـن الطيـف ، فوقـع كـوب الشـاى - من على الكمودينو - وانكسر .. تناثرت الشظايا ...!!

جاءت مسرعة خائفـة . تبـادلا نظـرات حـيرة وقلـق . اسـتردت هدوءها حين وضعت يدها اليسـرى عنـد أنـف الراحـل ، فلـم تجـد صدى لأنفاسه . شرخ صمتَ القلق صوتُ الابتهالات ، يـأتى مـن مئذنة مسجد قريب :

نوحُ الحمامِ على الغصونِ شجانى   ورأى العذولُ صبابتى فبكانى
إن الحمامَ ينوحُ من ألم النـوى   وأنا أنوحُ مخافـةَ الرحمـانِ

بدتْ لهما حقيقة الجرم الـذى فعـلاه . مقـدر ومكتـوب .. هـل يستطيع النهر تغييرا لمجراه ..؟! هزته من كتفه ، حتى يـزداد تماسـكا وشـجاعة . نظـرت إليـه وجثـة الراحـل ترقـد بينهمـا .. وعلامـات الخوف والندم على وجهـه وفـى عينيـه . أخـذت تمسح - بالفوطـة نفسها - قطرات عرق على جبهته ، وهى تنظر إليه واثقة : خائف ..؟!

- لا أعرف .

- ألا تحبنى ..؟!

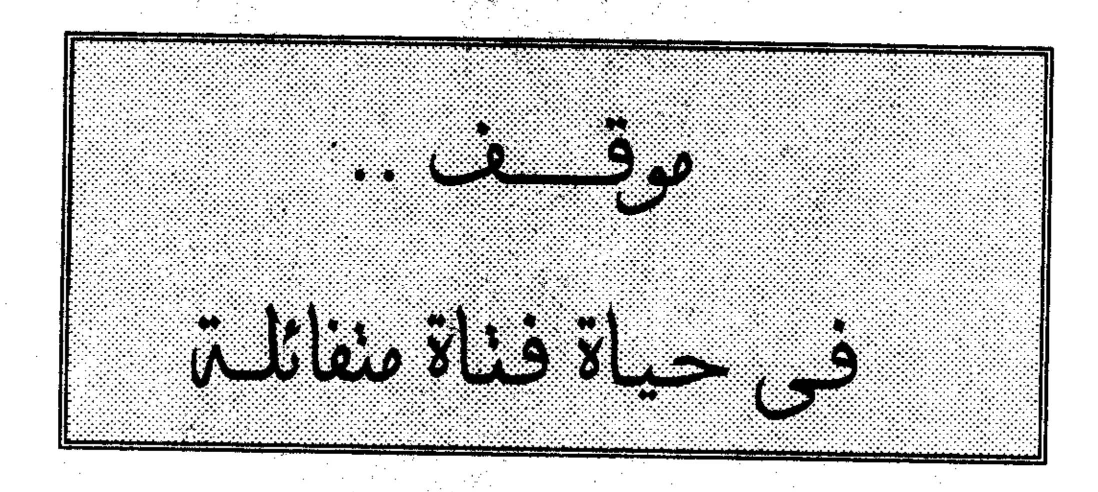
- تعرفين .

حاول أن يبتعد عن رائحة الموت ، فداس حذاؤه بعض الزجـاج المتناثر من كوب الشاى . وقفت أمامه وشدت جلبابه من خلف :

- إلى أين ؟!
- إلى شقتى .
- خذ الجثة ، وتخلص منها بمعرفتك .. كما اتفقنا .
- أشعر بالخوف .
- لم نتفق على هذا .
- أمرك يا حبيبتى .

أخذ يلف الجثة فى الملاءة الزرقاء . تركته - وحده - يقوم بالمهمة كاملة .. وهى تنظر .. وتنظر من بعيد . لم تشعر وهى تغلق الباب وراءه فى هدوء بأى قدر من القلق أو الحزن .. وسط الصالة . تنهدتْ بعمق وهى تسند ظهرها على حائط حجرة النوم . نظرتْ إلى الكنبة التى كانت تضمها منذ قليل مع سيد . ابتسمت لخاطر بعيد ، كأنما تناجى نفسها : اليوم أستطيع أن أتزوج مصطفى الذى أحبه .."*"

" * " الخميس ٢٣ رمضان ١٤١٥ - ٢٣ فبراير ١٩٩٥ .


موقـــف ..
فى حياة فتاة متفائلـة



حين سحبتْ المفتاح من الكالون ، وأغلقت الباب وراءها ـ أحستْ أنها انتقلت إلى عالم آخر .. عالم الداخل .. عالم الأمان .. المنقذ من الجنون ، وربما مما هو أسوأ من الجنون . أغلقت الباب بإحكام ، حتى تأمن أنها قد صارت بعيدة عن كل ما يربطها بالعالم الخارجى . تبادلتْ مع الأم قبلة تقليدية : حمدا لله على السلامة يا نوال .

ـ الله يسلمك يا ماما .

ـ أعد لك الغداء .

ـ استريحى .. لن أتغدى إلا بعد أن آخذ حماما ، وأغير ملابسى .

أغلقت باب الحجرة . بدأت تخلع ملابسها ، وهى تتأمل أحداث اليوم المزعجة . ناظرة المدرسة ـ مع أنها امرأة ـ أصرت على أن يأخذ فصول الثانوية العامة مدرسون رجال : لماذا يا أبلة ؟

ـ لأحافظ على نتيجة المدرسة .

ـ عجيب .. الوزارة تعترف بالمساواة والناظرة ..

ـ مس نوال .. الزمى حدودك .

تحولت المناقشة إلى خصومة . معقول .. كل من يطالب بحقوقه عاصٍ ومخالف لآداب العمل يا أبلة الناظرة ..؟!

خرجت من المدرسة ، وانتظرت الأتوبيس حوالى نصف ساعة .. لعنت الفقر ، الذى يحول بينها وبين ركوب التاكسى مثل بقية عباد الله ، الذين يتمتعون بمزايا عصر الانفتاح . الكعب العالى زاد من إحساسها بصعوبة الانتظار فى هذا الوقت الحار المزدحم فى الظهر . جاء الأتوبيس فحشرت نفسها بالقوة . تعرف - بالخبرة والمعرفة - أن كل شىء مباح فى الأتوبيس ، لذلك تحاول أن تصل بأقل الخسائر المادية والمعنوية . قالت واحدة من زميلاتها : هذه آخرة المساواة ..!!

- لا .. هذه آخرة الفوضى . لو أن وزير المواصلات له ابنة تركب الأتوبيس ...

دق جرس التليفون فأيقظها من خواطرها ..

- النمرة غلط .. وكل شىء غلط .. حاجة توجع القلب .

ارتمتْ على السرير منهكة . أرادتْ أن تستريح قليلا ، وتبرد جسدها ، ثم تأخذ حماما باردا ، يفتح نفسها للغداء . قررت أن تقرأ ، حتى لا تفكر فى أمر من الأمور السخيفة التى حدثت فى المدرسة أو الأتوبيس . القراءة هى المرآة السحرية التى تقوم بعكس الأحلام غير المرئية ، وتقوم بتحويلها إلى أحلام مرئية . الإنسان يستخدم المرآة العادية ليرى جسده ، لكنه يستخدم القراءة ليرى روحه ؛ وهذا يعنى أن القراءة فى الأساس نوع من مرآة الحلم ، التى تعكس دائما جوهر الأشياء . استراحتْ لهذه الخاطرة التى لا تدرى كيف جاءت إليها .. وفتحت الجريدة :

" احتجاز السيدات كرهائن داخل أقسام الشرطة وسيلة قهر وجريمة بشعة ، يرتكبها بعض صغار الضباط

للإيقاع بالمتهمين والحصول على معلومات ترشد عنهم من خلال أقاربهم ونسائهم . وهذه الممارسات لا تعد فقط اعتداء صارخا على حقوق وحريات المواطنين ، بل انتهاك سافر للقانون والدستور ، ومخالفة للمادة (٤٠) من قانون الإجراءات الجنائية ، التى تنص على عدم جواز القبض على المواطنين بدون أمر من السلطات المختصة ، ووجوب معاملة المواطن بما يحفظ كرامته ، وعدم إيذائه بدنيا ومعنويا .

ما نتحدث عنه ليس مجرد خيال ، بل حقائق مسجلة بمحاضر الشرطة والنيابة ، وقضايا متداولة فى أروقة المحاكم ...

* فى يوم ٥ ديسمبر ١٩٩٣ قام ضابط مباحث مركز أوسيم باحتجاز (١٨) سيدة وفتاة من أهالى قرية الزيدية لمدة ثمانية أيام ، وتعذيبهن بالضرب بالأحذية ، وإطفاء السجائر فى أجسادهن ، والصعق بالكهرباء باستخدام جهاز تليفون مزود بذراع لتوليد شحنة كهربائية ، وتجريد بعضهن من الملابس ، وتعذيب النساء أمام أزواجهن بالسحل والتهديد بتلفيق قضايا السلاح والمخدرات . وهذه كانت أخف وسائل الترهيب .. وارتكبت هذه الجرائم داخل قسم أوسيم بهدف إجبار المجنى عليهم على الاعتراف فى قضية قتل راح ضحيتها ثلاثة مواطنين . وقيدت الواقعة برقم (٨) فى النيابة .

المحضر رقم (١٥٤٦) لسنة ١٩٩٣ - إدارى قسم قليوب ، يكشف عن قيام ملازم بقسم قليوب بالاعتداء على منبية ناجى على .. بالكرباح ، وتجريدها من

ملابسها ، وتهديدها بالاغتصاب لإجبارها على الاعتراف بحيازة أسلحة .

* ١٥ إبريل ١٩٩٤ .. اقتحم معاون قسم شرطة ثانى المحلة ـ منزل زينب أحمد موسى قنديل بالمحلة الكبرى للبحث عن نجلها إبراهيم حسن رزق . ولما لم يجده قام باحتجازها والاعتداء عليها بالضرب والسب ، واعتراض جنود الشرطة السريين لها فى الطريق ، وتمزيق ملابسها أمام المارة ومحاولتهم اختطافها داخل سيارة لإجبار نجلها على تسليم نفسه للشرطة .

* هويدا السيد عبد الهادى ممرضة بمستشفى الدمرداش الجامعى ، قام معاون مباحث الشرابية باقتحام شقة والدها والاعتداء على أسرتها ، واقتيادها لقسم الشرابية واحتجازها والاعتداء عليها ، حتى أصيبت بكدمات وسجحات وتورم بالوجه والرقبة والظهر والصدر نتيجة التعذيب ...

* ضابط مباحث بقسم منشية ناصر قام باحتجاز إيمان عبد المنعم ـ طالبة بالإعدادية ـ ووالدتها منى جاد ، وصعقهما بالتيار الكهربائى ، وتجريدهما من ملابسهما وضربهما بالكرباج ، لإجبار شقيق الطفلة على تسليم نفسه للشرطة بسبب عجزها عن التوصل لمكان اختبائه .. (١)

---

(١) " جريدة الوفد " يوم السبت ١٥ / ١٠ / ١٩٩٤ ـ ١٠ جمادى الأول ١٤١٥ ـ العدد (٢٣٦٢) ص٨ .

لم تعد نوال قادرة على مزيد من القراءة .. المتعة الوحيدة ، التى تمارسها فى الزمن الخطأ . لو كانت تقرأ خطط المقريزى .. أو بدائع الزهور .. أو تاريخ الجبرتى لصدقت ، لكن الحقيقة مرة .. وأمر منها ألا نفهم مغزاها . أخذت تتأمل معالم الغرفة الفقيرة التى تعيش فيها من ربع قرن .. وصورة باهتة الملامح لأب عزيز رحل ، تركها هى وأمها وحيدتين . دخلت الأم فى هدوء .. ذعرت حين وجدتها متهالكة على السرير : أعد لك الغداء يا روح ماما ؟.

- نفسى انسدَّتْ ....!! (*)

(*) الخميس ٢ / ٣ / ١٩٩٥ - غرة شوال ١٤١٥ .

- نشرت فى مجلة « حواء » - العدد (٢٠٥٧) فى ٢٤ / ٢ / ١٩٩٦ .

من .. يسقى الأفاعي سمًّا ... ؟!

في الصباح الباكر .. عند الترعة ـ تجمع كثير من أهل القرية . علا صوت الرجال وهمس النساء . صاح نوفل العبيط ـ أول من اكتشف الحادثة : اعملوا حاجة يا بلد .. يا بلد بلا عمدة ..!!

ضربه أبو المعاطي الخفير بعصا التوت الرفيعة على كتفه : غور .. يا وجه المصائب .

شكل الحاضرون حلقة حول الجثة ، التي حملها التيار إلى الشاطىء : استر يا ستار .. هكذا قالت شريفة الداية ، وهي تفرش الطرحة السوداء .. لتستر الأجزاء العريانة من جسد الغريقة . حين اقتربت منها شعرت بنبض خفيف يسري في العروق : الغرقانة صحت .. كوب ماء ، وبصلة حمراء يا أولاد الحلال .

علق الشيخ عمران ـ إمام المسجد ، الذي وصل متأخرا .. ووقف بعيدا : سبحان من يخرج الحي من الميت ، ويحيي الأرض بعد موتها .

الشمس بدأت تنشر أشعتها على الكون ، وقطرات الندى تتساقط من أغصان الشجر وأوراق النبات . لم يستطع أحد من أهل القرية أن يتعرف على شخصية الغريقة .

ـ صغيرة .. أم كبيرة يا خالة شريفة ؟

صاح الخفير مرة ثانية : ابعد يا غشيم .. الناس تفكر فى المصائب .. وأنت ..

قربت شريفة البصلة التى كسرها أبو المعاطى - بيده اليمنى على ركبته اليسرى - من أنف الغريقة . قليلاً .. قليلا .. عادت الروح الغائبة إلى الجسد المنهك . رفضت أن تتناول شيئا من الماء ، الذى قدمته الداية إلى فمها بمساعدة أم السعد زوجة اسماعيل .

بدأت تتأمل - فى ضعف - ما حولها . تعجب الناس من قدرة القادر ، الذى نجى تلك المرأة المسكينة . حين التفتوا إلى حركتها أخذوا يتأملون جمالها ــ وهى شبة عارية إلا من بعض الملابس الخفيفة. متولى قوطة - الحلاق ، أخذ يبربش بعينيه الضعيفتين ، ويمد رقبته الرفيعة : أكيد هذه عروس البحر .. إنس أم جن يا عم الشيخ .؟!

بدأت تحاول .. تحاول أن .. تحاول أن تقف . جميلة بحق وحقيق .. ملك كريم . تجاهلت من يحملقون ، وهى تلف الطرحة فوق كتفها . مشت بخطوات ثابتة - كأنما تعرف الطريق . لم تتوجه ناحية البلد .. وإنما ناحية الحقول . فى صمت وذهول سار وراءها معظم الذين تجمعوا - من قبل - حولها .. وقد فقد أكثرهم الرغبة والقدرة . .

" مرة أخرى .. يدق ناقوس الخطر ، لينذر بأخطر ما يمكن أو يواجهنا ، حينما نكتشف حجم الجريمة التى تحيط بآثارنا المصرية ، وتهددها بالسرقة والضياع .

مرة أخرى .. ننبه إلى خطورة ما يحيق بآثارنا التى تتهاوى الواحدة بعد الأخرى ـ فى أيدى هواة جمع التحف من مختلف البقاع بواسطة حفنة من اللصوص ، الذين لا يساعدهم على نجاح مهمتهم الرخيصة مهارات يملكونها ، أو كفاءات علمية يتمتعون بها فى السرقة .. وإنما ساعدهم كم رهيب من الإهمال ، يحيط بواحد من أعظم كنوز البشرية .

وإذا كان خارج حدود مصر ما يزيد على (ثلاثة ملايين) قطعة أثرية نادرة .. ما بين مسروق على أيدى عصابات سرقة الآثار ، ومهدى للشخصيات الكبيرة التى تزورنا من الملوك والأمراء ـ كنوع من التقدير والإعزاز . إذا كان الأمر كذلك فمتى يتوقف هذا النزيف .. وكيف السبيل للسيطرة عليه .. بل ما الأسباب التى تقف وراء هذه الكارثة ، التى باتت توافينا بها وكالات الأنباء والصحف العالمية بصورة شبة دورية ...؟!" (١)

* * *

أهل القرية .. لا تجمعهم إلا المصائب ، وحتى هذا التجمع يكون مثل نار القش ، لذلك تفرق الكثير .. وبقى القليل ممن شغلهم حب الاستطلاع .. مضوا خلفها .. بينهم وبينها مسافة .

---

(١) جريدة " الأهرام " ـ الأربعاء ٢٩ مارس ١٩٩٥ ، ص٣ .

شمس الضحى تؤذن بيوم شديد الحرارة والرطوبة . الأقدام البطيئة تثير الغبار والحيرة . المرأة الغريبة .. جميلة رشيقة ، لا يعرف أحد اسمها .. أو يدرك سرها . نظرت أم السعد إلى شريفة نظرة ذات مغزى : لا يا أم السعد بطنها صغيرة .

تساءل صالح أبو عيسى - راعى الغنم : لماذا لا تقول شيئا .. يا عم الشيخ ؟

نظر بعينيه إلى السماء ، وهو يحرك حبات مسبحته السمراء فى ثقة أصحاب النفوس المطمئنة :

إلهى .. عبدُكَ الجانى أتاكا
مقراً بالذنوبِ وقد دعَاكا
فإن تغفرْ فأنتَ اهلٌ لذاكا
وإن تغضبْ فمن يرحمْ سِواكا

* * *

فجأة تحيَّر الجميع حينما رأوها تتوقف عند حقل من حقول القطن .. تتأمل الشجيرات فى أسى وحسرة . فاضت - بالدموع - عيناها . حتى الزراعة أفسدوها . الأرض هى الأرض .. لكن الرجال غير الرجال . ملأت يدها بحفنة من التراب .. وأخذت تشمه .. وتتأمله . سرعان ما قذفت به بعيدا .. بعيدا . أمسكت

شجرة قطن هزيلـة ، ونظـرت إليهـا فـي ذهـول وحسـرة . أخـذت تتمتم - في غضب - بعبارت غير مسموعة .

" اهتز العالم بعد اكتشاف سرقة آثار فرعونية ثمينة من المخازن والمقابر الفرعونيـة ـ وعلـى الأخـص فـى منطقـة سقارة . وجهاز الآثار - عندنا - لا يزال يهرش فى رأسه ، وينظر فى بلادة ، ويردد أسئلة لا معنى لها : مـين .. فـين .. إزاى ..؟!

وبدأت هيئات عالمية تحلل الموقـف الخطـير الـذى أدى إلى سرقة هذه الآثـار ، التـى لا تقـدر بثمـن .. وأشـارت أصـابع الاتهـام كلهـا إلى المجلس الأعلـى للآثـار ، الـذى تسيطر عليـه اللامبـالاة ، ويعشـشُ فـى ربوعـه الإهمـال والتراخى ، وعصابة سـوداء تحجـب عـن عينيـه الرؤيـة .. والمفروض أنه الحارس الأمين على آثارنا النادرة ..!!

وتتساءل صحيفة " الفيجارو " الفرنسية .. مـا الـذى يجعل الأمين العـام للمجلـس الأعلـى للآثـار مستمرًا فـى منصبه .. ومن الذى يحمى وجوده - رغم كل مـا حـدث فى عهده ...؟! (٢)

* * *

انتهزت شريفة وأم السعد وسعدة بائعة الخضار وصديقة الماشـطة فرصة وجود المرأة وحدها فى حقل القطن البائر .. وتجمعن حولها :

---

(٢) جريدة " أخبار اليوم " .. السبت ٢٥ مارس ١٩٩٥ ، ص٣ .

- نحن حريم مثل بعض .. يا حبيبتى .
- ما حكايتك يا بنت الناس ؟
- من أى بلد .. يا حبة عينى ؟
- سرك فى بئر ...
- سنعمل كل ما تريدين ، حتى لو طلبت عريسا ...

ابتعدت عنهم .. وهزت رأسها فى غضب ، كأنما تود أن تقول : لا يوجد فى رجالكم من يملأ عينى ..!! اقترب منهن نوفل فصاحت فيه الداية : ابعد يا أبو عين فارغة ولسان زالف .

عاد الموكب الجنائزى للسير خلف المرأة الغريبة . واصلت المسيرة .. تعرف ما تريد ، لكن الحزن يبدو على وجهها والدموع لا تفارق عينيها . جفت ملابسها الخفيفة ، وكشفت الأجزاء العريانة عن جمال الأعضاء المختفية . قال صالح أبو عيسى وهو يطرد ذبابة عن عينين يرعى فيهما الصديد ، من كثرة المشى فى وهج الشمس والغبار خلفَ الغنم : حلوة صلاة النبى .

رد اسماعيل أبو اسماعيل وهو يقارن بينها وبين زوجته العاقر الهزيلة أم السعد : هذه حورية .. مثل ميرفت بنت العمدة .. وأمانى بنت ناظر المدرسة .. الله يلعن المش وسنينه .!

أمر ما - يشد الناس نحو المرأة الغريبة .. ليس حلاوة الجسد ، وإنما جمال الروح . شىء فطرى جذبهم جميعا إليها . حين اقترب منها الشيخ ألبسها عباءته - وهو ينظر ناحية السماء : لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب لأخية ما يحب لنفسه .

- زوّجها لى .. يا عم عمران .

دفع أبو المعاطى نوفل ، وهو يلوّح بعصاه : ابعد يا غشيم .. جاءتك سخونة . سوف أذهب فورًا لإبلاغ المسئولين .. الأمن لابد أن يأخذ بجراه .

* * *

حين ذهب أبو المعاطى إلى بيت العمدة ، وجده يجلس متربعًا على الكنبة ، وقد امتلأت كرشه وامتدت أمامه فى ترهل ، كأنما بلع جملا بما حمل . يجلس على يمينه شيخ البلد ، وهما يدخنان الشيشة المعمرة بالمعسل والحشيش .. وحولهما بعض الأتباع . صاح الخفير : الحق يا حضرة العمدة .

قال وهو يطرد الدخان من أنفه وفمه : عرفت الخبر قبل أن تأتى يا غبى .

واصل شيخ البلد .. وهو يتناول خرطوم الشيشة : اسكت خالص يا حمار .. هذه ليست من بلدنا .. ولا نعرف أمرها .. صحيح الحادثة حصلت عندنا ، لكن مالنا ومالها .. أحسن شىء نعمل أذنا من طين وأخرى من عجين .

أكمل شيخ الخفراء : بدلاً من أن ندخل فى سين وجيم مع المأمور ووكيل النيابة .. وتبقى سمعة البلد هباب .. وهى ليست ناقصة .

سحب العمدة نفساً عميقا ، جعل النار تشتعل بقوة فى حجر الشيشة ، ثم قال : الباب الذى يأتى منه الريح ...

ـ يسلم لسانك يا عمدتنا .!

« لمن أتكلم اليوم .. الإخوة شر ، وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب .
لمن أتكلم اليوم .. الناس شرهون ، وكل إنسان يغتال متاع جاره .
لمن أتكلم اليوم .. الرجل المهذب مات ، والضيق الوجه يذهب فى كل مكان .
لمن أتكلم اليوم .. فمن كان ذا وجه طلق أصبح خبيثا ، وأصبح الخير ممقوتا فى كل مكان .
لمن أتكلم اليوم .. فقد أصبح الرجل المريض هو الذى يوثق به ، أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو .
لمن أتكلم اليوم . لا يذكر أحد الماضى ، ولن يفعل أحد الخير لمن يسديه إليه .
لمن أتكلم اليوم .. الإخوة شر ، والإنسان صار يعامل كالعدو ـ رغم صدق ميوله .
لمن أتكلم اليوم .. إذ لا ترى الوجوه ، وأصبح كل إنسان يلقى بوجهه فى الأرض إعراضًا عن إخوانه .
لمن أتكلم اليوم .. والقلوب شرهة ، والرجل الذى يعتمد عليه أمسى معدومًا ، وصار الإنسان يعامل كأنه رجل مجهول ـ رغم أنه قد جعل نفسه معروفا .

لمن أتكلم اليوم .. إذ لا يوجد إنسان فى سلام ، والذى ذهب معه لا جود له .
لمن أتكلم اليوم .. فإنى مثقل بالهموم ، وينقصنى خِلٌ وفى .
لمن أتكلم اليوم .. والخطيئة التى تصيب الأرض لا حد لها ..!!" (٣)

* * *

اقتربت المرأة من الناس الذين تجمعوا حولها رجالاً ونساءً . على قدر قربها إليْهم ، بدت كأنما تعانى الخوف منهم . لا علاقة بين القرب المادى .. والتواصل الروحى . ما لا نعرفه عن أنفسنا .. يساوى حجم ما نجهله عن العالم ...!! تود أن توصل لهم حقائق كثيرة غابت عنهم . كيف .. وهى لم تعد ترغب فى الحديث ؟ على وجه اليقين صارت تشك فى قدرة الكلام ، على إيقاظ النُّوَّام . طال الطريق .. وحجب الغبار الرؤية .. وحرقت حرارة الشمس أجساد البشر . ومع ذلك ظلوا جميعا سائرين مثل ساقية جحا .. ما يخرج منها ، يرجع إليها .

---

(٣) قطعة من تأملات شاعر مصرى قديم .. وردتْ فى كتاب : الأدب المصرى القديم : سليم حسن .

طبعة مصورة - كتاب أخبار اليوم - جـ١ ، ص٣٠٠ .

انجذب الجميع - رغم المعاناة والعطش - إلى فلك المرأة الغريبة ، عاطفة مبهمة تقربهم جميعا إليها ، كأنما شدوا بحبل سُرى .

- ما حكايتك .. يا أمة الله ؟!

لم ترد على الشيخ عمران .. مضت بخطى أسرع ناحية الترعة ، وهى تتأمل - فى حزن وحسرة - الأرض البائرة .. الزرع التالف .. البشر المعذبين . لم تستطع أن تخفى إحساسها الزائد بالفجيعة والاغتراب إزاء كل ما حولها . لعنة الفراعين .. ثمة شىء نفيس ضاع ، ولا أمل فى عودته .. لا أمل .. لا أمل ...!!

قال نوفل بصوت يشبه أنين الثكلى : السماح يا أهل السماح .. مدد يا حبيب الله .. مدد .

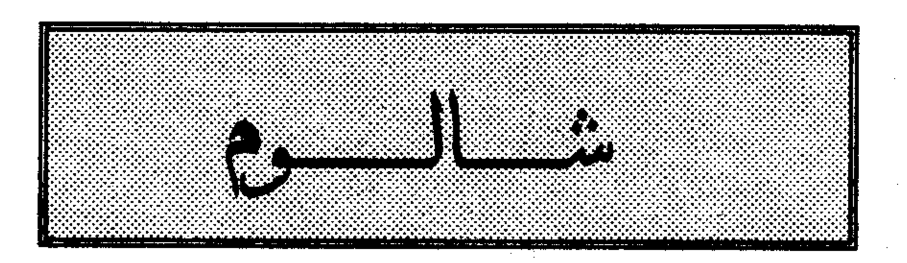
تمتمت أم السعد : قولوا حاجة يا عباد الله .

رددت سعدة : إنهم لا يقولون .. ولا يعملون .

قالت شريفة : كان الله فى عوننا .

عندما وصلت الغريقة إلى المكان ، الذى وجدوها عنده .. تركت طرحة الداية وعباءة الشيخ .. وعادت إلى المقر الذى منه جاءت ...!! (*)

(*) الإسكندرية - السبت ٢٢ / ٤ / ١٩٩٥


شـــالـــوم

.... تقوقعتْ الأم سلمى تحتضنُ صبيها عبد الرحمن العربى - الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره - ومعها بعض العجائز . الرجال خرجوا يبحثون عن لقمة عيش ملطخة بالذل والعار .. لا يوجد عمل إلا عند الذين سلبوهم الأمن والأمان ، وسرقوا كل شىء .. كل شىء ، حتى بسمة الأمل . اقتربتْ ذكرى اليوم المشئوم الذى أعطى فيه من لا يملك من لا يستحق أرض الميعاد - رغم أن هذه الأرض أرض العرب قبل مولد السيد المسيح بمئات السنين . استشعرتْ النساء - وهن بعيدات عن الرجال - الخوف والغضب فى آنٍ واحد .

المسافة بين هؤلاء البائسات وبين المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وكنيسة الميلاد ودير السلطان قريبة جدًا .. لكن ذلك لم يكن كافيا ليزيل عنهن مرارة الإحساس بالخوف والغضب . تأملت أم عبد الرحمن مغيب الشمس وصوت الريح من طاقة صغيرة فى جدار الدار . كانت تتكلم مع جاراتها عن الحدث الدامى ، الذى أذهل عرب فلسطين : مسلمين ومسيحيين . إسرائيل تريد تهويد القدس ، وقد اغتصبتْ عشرات الهكتارات من الأراضى ، وطردت المئات من بيوتهم . اليهود الذين لم يكونوا يملكون سوى خمسة فى

المائة من أرض فلسطين أصبحوا يحتلونها بالكامل .. وصاروا وحدهم أصحاب الأرض - أرض الميعاد . قالت أم عبد الرحمن بصوت تخنقه العبرات :

- أصبحنا لا حول لنا ولا قوة .

- ليس فى العالم من يسمعنا ...

- حتى ولا أهلنا ...

قفز عبد الرحمن وقد تاه جسده النحيل فى جلبابه الواسع . قال بصوت شجاع : لا تيأسى يا أمى . لا تحزنى يا خالتى صابحة .. اسمعى يا خالتى عصمة .. الدنيا كلها معنا . اسمعى ما يقول راديو " **صوت العرب** " :

" إليكم نص القرار الذى سيعرض على مجلس الأمن بشأن القدس :

إن مجلس الأمن إذ يعيد تأكيد قراراته بشأن مركز القدس بما فى ذلك قراراته ٢٥٢ (١٩٦٨) و ٢٦٧ (١٩٦٩) و٢٧١ (١٩٦٩) و٤٧٦ (١٩٨٠) و ٤٧٨ (١٩٨٠) و٦٧٢ (١٩٩٠) ، وإذ يعرب عن قلقه لما أعلن مؤخراً بشأن الأوامر " الإسرائيلية " بمصادرة ٥٣ هكتاراً من الأراضى فى القدس الشرقية .

وإذ يؤكد مجددا انطباق اتفاقية جنيف الرابعة المؤرخة فى ١٢ اغسطس / آب ١٩٤٩ على جميع الأراضى ، التى تحتلها " إسرائيل " منذ عام ١٩٦٧ بما فيها القدس .

وإذ يدرك الأثر السلبى لعملية المصادرة المذكورة أعلاه على عملية السلام فى الشرق الأوسط ، والتى بدأت فى مدريد فى أكتوبر ١٩٩١/ تشرين الأول ١٩٩١ على أساس قرارىْ مجلس الأمن ٢٤٢ (١٩٦٧) و٣٣٨ (١٩٧٣) .

وإذ يدرك أيضا أن " إسرائيل " ومنظمة التحرير الفلسطينية اتفقتا فى إعلان المبادىء المؤرخ ١٣ سبتمبر / أيلول ١٩٩٣ على تأجيل المفاوضات بشأن القضايا المتعلقة بالمركز النهائى بما فى ذلك مركز القدس إلى المرحلة الثانية من عملية السلام .

وتصميماً منه على تقديم الدعم اللازم لعملية السلام فى الشرق الأوسط :

١ ـ يؤكد أن قيام " إسرائيل " السلطة القائمة بالاحتلال ، بمصادرة الأراضى فى القدس الشرقية إجراء باطل ويشكل انتهاكاً لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة ولأحكام اتفاقية جنيف الرابعة المؤرخة فى ١٢ اغسطس ١٩٤٩ .

٢ ـ يطلب من حكومة " إسرائيل " أن تلغى أوامر المصادرة وأن تمتنع عن اتخاذ مثل هذا الإجراء فى المستقبل .

٣ ـ يعربُ عن مساندته الكاملة لعملية السلام فى الشرق الأوسط وما حققته من إنجازات بما فى ذلك إعلان المبادىء المؤرخ فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ وما تلاه من اتفاقات لتنفيذه .

٤ ـ يحث الأطراف على الالتزام بأحكام الاتفاقات التى تم التوصل إليها وعلى متابعتها بتنفيذها تنفيذا كاملا .

٥ - يقرر أن يبقى المسألة قيد النظر . » (١)

* * *

انكسر الباب فجأة . دخل مجموعة من الجنود اليهود . قال واحد منهم ، وهو يصوِّب مدفعه إليهن :

- صدرت الأوامر بأن تخلوا البيوت .

صاحتْ سلمى وهى تحتضن ولدها :

- لن نخرج قبل أن يأتى رجالنا ..!!

- من أخبرك أنهم سيعودون .؟!

أصوات طلقات .. وصياح .. وبكاء .. واستغاثة .. تأتى من الجهات الأربع .. اقترب الذئب المسعور من الصبى ، وهدد بصوت مخيف :

- اخرجن سريعًا وإلا ..

قالت عصمة :

- لن نخرج إلا إذا جاء رجالنا ..

أسكتها أحد الذئاب بلطمة أطارت بعض أسنانها . نزف الدم من فمها وهى تبكى .. وتنتحب دون أن تقدر على قوْل كلمة . محيت كل الكلمات من ذاكرتها . الخوف - وقد شربت منه

---

(١) جريدة " الخليج " - أبو ظبى فى الجمعة ١٩ / ٥ / ١٩٩٥ .

الكثير ـ جعلها بكماء خرساء . نظرت إلى سقف البيت كأنها تناجى الله .. وتستغيث به :

ـ يا ألله .. ألا ترى .. ألا ترحم ..؟!

ـ يا غنم .. يا معيز .. سوف أجبركن على تنفيذ الأوامر .

جرى الجندى ، وجذب الصبى ـ عبد الرحمن العربى ـ من حضن أمه . حين حدث ذلك أصاب الجميع خوف ورعب . البكاء يشتد .. والعويل يزداد .

قالت الأم :

ـ سأنفذ كل ما تريدون .. اتركوا ابنى .. اتركوا ابنى ..

قال الجندى وهو يحكم قبضته الشيطانية على كتفه الهزيل :

ـ لن نأخذه .. لسنا فى حاجة إلى الحمير . فقط يجب أن تعلموا جزاء من يعصى أوامر حكومتنا .

ألصق الصبى وهو ينتفض خوفا فى الحائط . صوب البندقية .. بدأ يستعد . عفريت آخر دفعه بعيداً ، وهو يلوح ببلطة مصقولة حادة :

ـ الرصاصة أغلى من هذا الكلب الأجرب .

فى لمحة سريعة شج رأس الصبى ، فانشطر نصفين ، وتناثر نافوخه على الأرض . سقط الشهيد الصغير وسط بحيرة من الدماء ، وأطراف جسده لا تزال تنتفض وترتعش رعشة محمومة .

انهارتْ الأم الثكلى . احتضنتْ جثة وليدها . أخذت تلطخ وجهها وثيابها بدمه الحار :

- ليتهم قتلونى أنا يا عبد الرحمن ..

أخذتْ تنظر يمينــا وشمـالا دون أن تـرى شيئا ، ظلـت تنـوح .. وتغمس كفيها فى الدم :

- عبد الرحمن مات .. مـات .. مـات يـا كبـد أمـه .. مـات .. مات .. آ آ آه .. ثم ارتمت فوق جثمانه المنتفض .

خرجت النساء الأخريات . لم يكن الجندى القـائل متـأكدًا هـل مـاتت أم لا . لم يشغل نفسه بالسؤال أو الإجابة . مـدَّ سـونكى البندقية وطعنها من الخلف وهــى نائمـة علـى جثـة وليدهـا . خـرج والسونكى لا يزال يقطر من دماء سلمى ، وهو يقول مزهوًا :

- شالوم عليخم أم عبد الرحمن .. شالوم ...

أسكرته نشوة النصر .. فهرول سريعًا نحو الخارج ، وهــو يحكـم قبضته على البندقية ، ويلوح بها فى الهواء . لم يلتفت إلى أن طاقيتـه التقليدية سقطتْ فى ردهة الدار الحزينة .

حين خلت الدار .. سكتتْ كل الأصوات . بـدأ يتضـح صـوت الراديو ، الذى كان فى يد عبد الرحمــن العربى قبـل أن يستشـهد . واصل راديو " **صوت العرب** " الإرسال رغم أنه لم يكن فـى الـدار من يسمعه ..

« أحـــاولُ منـــذ بـــدأتُ كتابـــة شـــعرى
قيـــاس المســـافة بينـــى وبـــين جـــدُودى العـــرب
رأيـــت جيوشًـــا .. ولا مـــن جيـــوش
وتـــابعتُ كـــل الحـــروب علـــى شاشـــة التلفـــزة
فقتلـــى علـــى شاشـــة التلفـــزة
وجرحـــى علـــى شاشـــة التلفـــزة
ونصـرٌ مـن الله يـأتى إلينـا علـى شاشـة التلفـزة
أيـــا وطنـــى جعلـــوك مسلســـل رعـــب
نتـــابع أحداثـــه فـــى المســـاء
فكيـــف نـــراك
إذا قطعـــوا الكهربـــاء..؟! » (١)

* * *

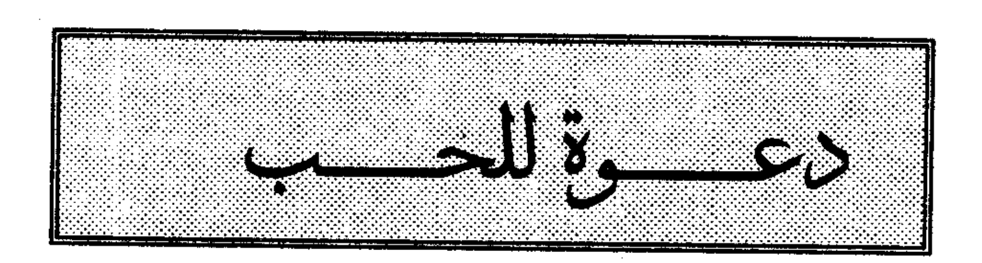
فجأة .. أنتْ أرجاءُ الدار الحزينة ، والبلدوزر الطائش يهدم جدرانها بلا رحمة ، ويجعل عاليها سافلها .

فى زحمة الهدم .. داست عجلات البلدوزر الحديدية الراديو الصغير .. فسكت صوت العرب .. وعمت الأحزان شوارع القدس العتيقة .... (*)

---

(١) من قصيدة .. " متى يعلنون وفاة العرب " للشاعر السورى نزار قبانى .

(*) كُتبتْ فى الدوحة ـ السبت ٢٠ / ٥ / ١٩٩٥ = ٢٠ ذى الحجة ١٤١٥ هـ .


دعـــوة للحـــب

عندما تعصف بى رياح القلق العبثى .. أهرب إلى هذا المكان الهادئ على شاطئ النيل . أجلس بعيدًا .. بعيدًا .. بعيدًا .. خشية أنْ يرانى أحد يعرفنى .. أو أرى أحدًا أعرفه . فى انتظار أنْ يحضر النادل كوب عصير الليمون الذى طلبته ، أخذت أتأمل أشعة الأفق البنفسجية ، التى تتداخل فى طبقات السحب اللانهائية . نبات ورد النيل بعث رائحة كريهة .. وشكّل منظرًا معتمًا . صياد عجوز .. ومعه طفلاه ، يصطادون السمك فى الماء العكر . تعكر كل شىء فى هذه الدنيا .. يا قلبى . يا قلبى الحزين أنا مسكينة .. حزينة .. أشترى الحب بالعذاب . وأبحث عن جدوى .. جدوى أى شىء .. فى محيط تعكر فيه كل شىء يا قلبى الحزين ..!!

- لا يوجد عصير ليمون يا آنسة .

نظرت إليه وأنا لا أتبين من هيئته سوى عوده النحيل .. وبدلته السوداء .

- أى شىء بارد .

- سفن أب ؟!

- سفن أبّ .. سفن داون .. المهم أى شىء بارد .. حتى لو كان ماءً ...

لست أدرى لم انفجرت فى النادل .. ولا لم تضايقت من سؤاله العادى . لولا أن الرجل يعرف أنى زبونة دائمة .. لما ردَّ علىَّ بمثل هذا الأدب والهدوء .. الزبون دائمًا على حق . يبدو لى - أحيانًا - أنه لا يوجد أحدٌ على حق فى هذا العصر الموْبوء . كل شىء باطل وقبْضُ الريح ..!! مَنْ الغزال ومَنْ البغل .. مَنْ الحمل ومَنْ الذئب .. مَنْ الظالم ومَنْ المظلوم .. مَنْ الفاعل ومَنْ المفعول .. مَنْ الإنسان ومَنْ الحيوان .. مَنْ .. ومَنْ .. مَنْ .. ومَنْ ... ؟!! تداخلت كل ألوان الطيف .. التى خلقها الله .. والتى شكلها البشر .. والتى صوَّرها الوهم . أوهام .. أحزان .. قلق .. أرق .. يطق .. ينفلق . لست أدرى .. لم أحس دائما أنى المعذبة الوحيدة فى هذا الكون ، الذى لا أعرف سبب الخراب .. الذى يسرى فى كل أجزائه .؟!

أخذتُ .. أمعن النظر فى الماء العكر . الصياد العجوز يقود القارب بضعف وصبر .. الصبى الكبير يسحب الحبل الذى وضع فيه الفلين والسنانير .. الصبى الصغير يخلص السمك من السنانير . لم يكن الصياد .. وولداه - فيما يبدو - مسرورين .. فالسمك قليل وصغير الحجم ، يكادُ لا يكفى وجبة لأسرة بائسة . ناس تتعب ولا

تكسب .. وناس تكسب ولا تتعب . شريعة من هذه .. يا قلبى الحزين ..؟!

طرأتْ على خواطرى المبعثرة .. فكرةٌ غريبة - لا يبدو أنها خطرت لأنثى من قبل - طالما أن الطغاةَ يحكمون العالم .. والضعفاء لا أمل فى أن ينالوا أى حق من حقوقهم الضائعة .. والحب الحقيقى لا ينمو ولا يستمر .. بل لا يوجد ، المزيفون .. ولابسو الأقنعة .. وأبناء القحبة .. وأولاد الكلب .. هم أصحابُ المستقبل فى هذا الكون الموبوء ..!! الخراب بدأت أصابعه الأخطبوطية تنتشر فى كل مكان فيه إنسان ..!! طالما أن هذا هو الواقع الموبُوء .. فلم نحرص على استمراره ؟! نتيجة لكل ذلك فكرتُ - من أجل نفسى .. على الأقل - أن أقدم دعوة إلى عدم الزواج .. والتوقف عن الإنجاب . أبو العلاء المعرى كان على حق .. لم يحاول أن يجنى على أحد .

أيها المحبون .. ليبغض كل منكم من أحب ، فالحب فى هذا العصر المجنون مستحيل .. لا .. الحب خرافة .. والوفاء أندر من الكبريت الأحمر . أيها الأذلاء والمستضعفون .. لا تحقدوا على الطغاة ، ولا تتمردوا عليهم ، فقد خضعتم لهم حتى صار الذل والفقر والقهر والعجز .. مفاتيح أساسية فى تكوين شخصياتكم

المجوفة . الغاية تبرر الوسيلة .. غايتى فى منتهى النبل . كفوا عن الحب وأضربوا عن الزواج .. بهذا تستريحون .. وتريحون العالم من العبث والجنون ، ومما هو أسوأ من العبث والجنون ..!!

بدأتْ أشعة المساء تغلف جدار الأفق برداء أسود ، فالليلة لا قمر .. لا قمر فى السماء .. يا أسماء . كم أنا سعيدة بهذا المكان الهادئ ، الذى فجَّر فى نفسى كل تلك المشاعر الجميلة . بينما كنتُ أنظر إلى أمواج النهر الصامتة تئن تحت أوراق ورد النيل فى الظلام ، والصياد العجوز قد اختفى بعيداً .. بعيداً ـ أقبل النادل مبتسمًا :

ـ تريدين شيئًا آخر ؟

ـ شكرًا .

ـ انظرى حولك .. بعد قليل سيصورون هنا مشهدًا سينمائيًا . هذه أول مرة .. قد تكونين سعيدة الحظ ....

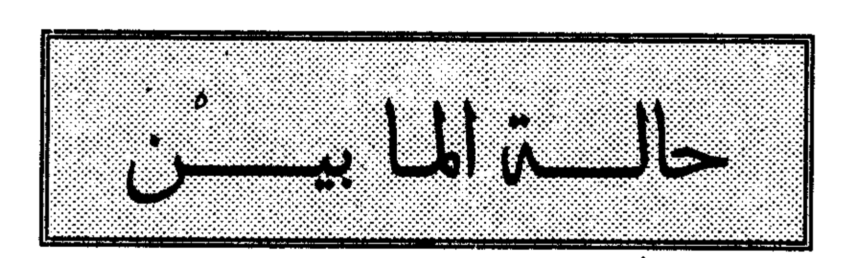
لم أستطع أن أتابع كلامه ، ولكن عينى كانتا ترقبان فى غيْظ ركنى الجميل الهادئ .. وقد تحول إلى سوق .. سوق عمل وإنتاج . الممثلة الحسناء تجلس على كرسى فى الهواء الطلق .. على عينيك يا تاجر .. والكوافير يصلح زينتها . ممثل شاب صاعد يتبادل معها عبارات غزل هامسة . ممثل عجوز .. جلس فى ضجر ..

يدخن سيجارة في انتظار أوامر المخرجة والمصور . عامل الإضاءة .. يقتل الوقت بالتهام سندوتشات فينو بسرعة خاطفة ..!!

يوم تاريخي ولحظة عاصفة . هربت من الدنيا فجاءت خلفي حيةً تسعى . ازددتُ إيمانًا بأننا في عصر القهر .. والكره .. والخوف .. والضعف . لا أمل في عدل .. ولا حلم في حب .. فليسقط الحب وليحيا السمك في الماء .. حتى ولا السمك .. يا أسماء ..!! حاولت أن أجرَّ حقيبتي وأهرب . فوجدتُ النادل يرجوني بإشارة من يده وفمه ألا أغادر المكان . صوت أجش يصيح من بعيد : - كلاكيت .. تمثيلية .. دعوة للحب .. المشهد الخامس .. أول مرة .... (*) .

(*) الأربعاء ٧ يونيو ١٩٩٥ = ٩ من المحرم ١٤١٦ .

- نُشرت في مجلة « القصة » - العدد (٨٣) - يناير ١٩٩٦ .


حالة المابين

احتوته حالة من القلق والارتباك . انتهى سريعاً من تناول عشاء خفيف ، واتجه ناحية الشرفة . كان حريصاً على أن يظل بملابس الخروج . تعطر من الزجاجة التى أهدتها له فى عيد ميلاده الأخير . بدا .. كمن يتأهب لموعد مع المحبوب . انكسرت حدة حرارة الجو .. وخفت رطوبة يوليو اللعينة . اقترب الموعد .. وحان وقت اللقاء . انتصف ليل القاهرة ، وتعانق العقربان ــ عقربا ساعة الكون ، فى لحظة تؤذن بصمت الكائنات ، ويقظة الذكريات ، وحديث الذات إلى الذات ــ ذات الحزن والجمال .. حبيبته ، صاحبة القلب الأبيض والحظ الأسود . تبعثرت خواطره مع دخان السيجارة .

تداخل الليل فى النهار ، وهو لا يمل الانتظار . ماذا صنع الحب فيه ..؟! لا يدرى .. ويدرى أنه لا يدرى . لم يعد يدرك إلا حقيقة واحدة : إنه فى حالة حب ..!! لم تكن تلك أول امرأة فى حياته ، لكنها أول حالة حب حقيقى يمر بها ، لذلك يحس أنه قد انتقل من العالم العينى ، إلى العالم الغيبى ، بمقتضى العلم الأزلى . أحس المريد السالك ، أنه بدون المحبوبة هالك هالك . هيىء له ــ من قوة

وجده - أنها تقف أمامه ، تبتسم - عن قرب - له . فصاح من أعماقه : يا روح الروح .. يا قِبلةَ القلب .. نام الكون ، وهفا كل حبيب إلى حبيبه ، وانشغل كل أليف بأليفه .. وجئت أبحث عنك يا نور عينى ، فإذا أنت بعيدة قريبة .. قريبة بعيدة . أنت فوق كل شيء .. أنت - فى الغيب - لقلبى خُلقت قبل أن تشرق شمسى . هذه المدينة المزدحمة بها أكثر من خمسة عشر مليوناً .. لكنها - بغيرك - عدم وفناء . أمامى .. خلفى .. صمت ، أسمع وقع خطواته ، لكن الشوق المشتعل .. والقلق المدمر فى أعماقى ، لا يقدران على أن يحجبا ضوء حبك ، الذى يحتوينى من قمة الرأس إلى أخمص القدم . أنت - بالجسد - بعيدة ، لكنك - بالروح - كل الوجود . لا أرى إلا صوتك .. لا أسمع إلا رؤاك .. لا أجلس إلا مع حضرتك .. لا يملأ عينى سواك .

إنى جعلتُك فى الفؤاد مُحدثى وأبحتُ جسمى من أراد جُلوسى
فالجسمُ منّى للجليسِ مُؤانسى وحبيبُ قلبى فى الفؤادِ أنيسى

أنا فقير مسكين .. لكنى - بك - غنى ميسور ، لأن قلبك البكر كنزى .. وروحك العذراء ملكى .. ملكى أنا .. أنا وحدى .. أنا سلطان العاشقين .. وأعف المحبين .. فى مملكة رب العالمين . أنا وأنت - يا حبيبتى - فى مقام ، لم يُؤته أحد من البشر ، إنه مقام

الاتحاد ، إذ لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يـا أنا . يا أنا : بينى وبينك أرض .. وبحار .. وسماء ، لكـن الخيـال ـ الواقـع الحقيقـى ـــ يجعلنـى أراك رأى العيـن ، أمسـك أنـاملك الرشيقة .. أشاهد بسمتك الرقيقة .. أستمد الأمل من نور عينيك . سكران ولا خمر ، مسافر بغير قطار ، لأنى ـ مثلك ـ أملـك بسـاط الريح ، وأسافر منك وإليك .. منك وإليك ، وأقول لبيك .. ألـف لبيك . ما بيننـا ـ يـا روح الـروح ـ أمـرٌ تعجـز عـن فهمـه العامـة والدهماء ، أمر لا يدرك كنهه ، ولا يعرف سِره إلا مـن وصـل إلى مقام الاتحاد والفناء . العَقد الذى بيننا .، عَقد المحبة وميثاق المودة . للخلق أحوال ، ولا حال للمحـب ، لأنـه محيـت رسـومه ، وفنيـت هويته بهوية غيره ، وغيبـت آثـاره فـى آثـار سـواه . عقـد المحبـة يا حبيبتـى يعرفـه مـن يرتفعـون فـوق الخطايـا ، ولا يفكـرون فـى الدنايا ،لأنهم يسعون نحو الـروح ، وطريـق الـروح نـور خـالص ، وقدس طاهر . طريق الروح يا حبيبتى .. نور .. نـور .. نـور علـى نـور . يـا ذات الوجـه البـدرى . . والخـد الـوردى .. والشـعر الليلـى . . والوجـه الملائكـى .. والأمـل النورانـى .. والقلـب الصوفـى .. زملينى زملينـى .. دثرينـى دثرينـى .. وإليـك خذينـى

خذينى .. احتوينى احتوينى .. فأنا ـ بغيرك ـ عمر بلا شباب أو حياة بلا ربيع ..!!

يا ذات النفس النفيسة ، والفرحة الحبيسة : دعى القلق والحيرة ، والشك والغيرة ، فقد ضاع ـ منى ومنك ـ الكثير .. الكثير ، وأنا أنتظرك ، كيما أجد عمرى الذى ضاع ، وشبابى الذى عبس وتولى . يا رمز الوفاء والرجاء .. يا نور العين وضحكة القلب : تعالى .. تعالى .. فقد سافرت طويلا .. عبر الزمان والمكان والإنسان ، حتى رسا قاربى المحير عند شاطئك الجميل . قلت لى ـ ذات مرة فى إحدى رسائلك العزيزة ـ إننا فى بوتقة واحدة .. ولا خلاص إلا باللقاء بعد أن نصبر على مصاعب الطريق . وأنا أقول لك ـ يا حبيبتى ـ فلنبعد عن طريق النار .. ونسبح فى موج البحار . أنا وأنت فى قارب واحد .. هل يا جميلة تذكرين يوم ركبنا القارب فى البحيرة . كان كل منا يمسك مجدافاً .. ويصارع الموج ، ويقاوم الهواء .. والأهواء ، حتى وصلنا إلى الشاطىء بسلام ...!!

أفاق العاشق من مقام العشق والمعشوق .. على حركة سيارة مسرعة ، تشرخ جدار الصمت والتأمل . السيارة مفتحة النوافذ ، وبها عفاريت يتمايلون .. يصفقون .. يرقصون ، على صوت

خشن ، عريض النبرات ، سوقى الإيقاع ، يصيح بصوت يغتال البراءة :

One Way Ticket

OneWay Ticket

أطل من نافذة الشرفة ، كأنما يرى الشارع أول مرة . أول مرة .. كيف .. وهو يعيش فى هذه الشقة منذ فترة طويلة .. منذ .. منذ متى يا وحيد ..؟! لم يعد قادراً على التذكر ، ولم يعد يدرى عدد السنين والأيام . اغترب عن الشارع وما فيه ، وعاد إلى الداخل يستوحيه . ما إن تذكر المحبوبة ، حتى رآها ماثلة أمامه . تداخلت الغيبة فى الحضور ، والظلمة فى النور . كلما تأمل تذكر : أحبك يا حبيبتى .

- أنت أكثر ..!!

يا حبيبتى ، سوف تلهو بنا الحياة وتسكر ، فتعالى .. تعالى أحبك الآن أكثر .. أكثر . أنت قدرى .. عيناك بحرى .. أختال فى موجة عطر .. واصلا ما بين عينيك وعُمرى . يا هدى الحيران .. وواحة الظمآن .. إنى أغرق فى بحارك ، يا من لك عز المدل المنعم ، وثقة القادر المحتكم . متى أراك يا حبيبتى .. متى يضمنا بيت واحد ؟! أعددتُ لكِ ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ

سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، لأنى أحبك حب الهوى . فى هذه اللحظة من لحظات الما بين ، تذكر كل ذرة فى الكيان النورانى : الوجه الخمرى . . الفم القرمزى .. القد الرشيق .. الجمال الأنيق . يعرفها جيداً .. يعرف اسمها .. ورسمها ، لكن الأمر الذى تحير منه وله ، أنه يردد اسمها بينه وبين نفسه ، لكنه لا يريد أن يذكر اسمها لأحد .

لا تسألونى ما اسْمُه حبيبى   أخشى عليكم ضوعةَ الطيوبِ
والله لو بحتُ بألفِ حرفٍ   فلن أَبوحَ باسمه حبيبى

يا منى روحى .. وحلم حياتى ، بين ماض من الزمان وآت ، سأظل لعهدك وفيا .. ولحبك عابداً تقياً .. فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك . تجلى له الحب الصادق أملا بعيداً فوق الما فوق .. أملا يحول الجسد الطينى ، إلى كيان نورانى .. فإذا هو هى .. وإذا هى إياه .. ياه .. ياه يا ألله .. يا ألله ..!! أنا أحب .. إذن فأنا موجود .. ومحمود .. ومحسود . الحب صار عملة نادرة فى هذا الزمان الردىء . لكن السفر مهما طال - يا حبيبتى - والألم مهما اشتد ، لا يمنع المريد من السير والسرى ، حتى يصل إلى جنة المأوى . الحب جنة الله على أرض البشر ..!!

حاول ـ وهو فى مقعده من الشرفة ـ أن يتذكر متى رآها أول مرة ، فنسى كيف كان لقاؤه معها أول مرة . سألها ذات يوم : وما نهاية الطريق يا حبيبتى ؟

فأجابته بصوت ملائكى : وهل عرفت أوله ، حتى تسألنى عن آخره ؟ أجمل شيء هو أن تعيش اللحظة ، وتسعد بالحالة . كُفَّ عن السؤال .. ودعِ الأيام تفعل ما تشاء . أقوى سبيل لوصف الحب .. هو أن تعجز عن معرفته . كلنا يعرف ضوء القمر ، لكن لا أحد يدرك ماهيته ..!!

هبت نسمة باردة ، ظن أنها وافدة من ديار الحبيبة البعيدة القريبة يعرف أنها تجلس مثله ـ وحيدة ـ فى شرفة بيتها ، تناجيه كما يناجيها .. وتستحضر ـ على البعد القرب ـ طيفه ، كما يستحضر هو طيفها . فقد اتفقا .. بل آمنا أن من يوحد الله بينهما ، لا يستطيع أحد من البشر ـ مهما كان .. وأيا من كان ـ أن يفرق بينهما . الحب حالة ، فطوبى لمن نال بركاته ، وشاهد ـ من العجائب ـ كراماته ، فقد جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس ، وقلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس . من أراد الصفاء ، فعليه بالوفاء . تحابوا .. أو موتوا ، فالحب حياة .. والحياة حب . أدرك فى تلك اللحظة أن فى مناجاة المحبوب لذة ، وفى العبودية له عزة .

أحس رغم الحنين ، بقدر من الأسى والأنين ، لا يدركه إلا من غرق فى بحار المحبين . أحس أنها تملأ الكون حواليه .. لم يعد يبصر .. أو يسمع .. إلاها .. هى وحدها ، التى يتمناها . ويرغب فى لقياها ..!! هى وحدها دون نساء العالمين ، التى يتمنى أن يحل ضفائرها ، ويروى ظمأها . ظمأ على ظمأ على ظمأ .. وشوق على شوق على شوق . يا ألله حين وهبتنا نعمة الحب ، لم بخلت علينا بلذة القرب .. ؟!

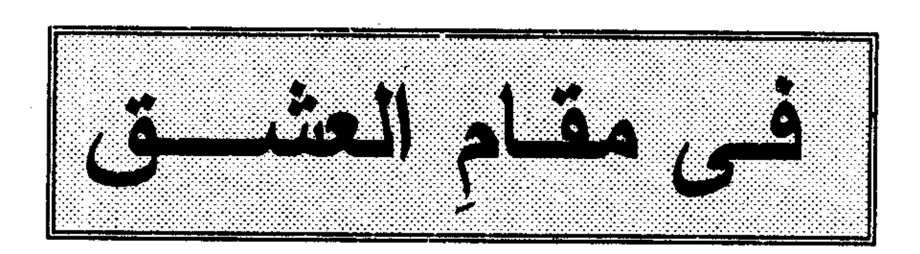
أوشك ضوء الفجر على الظهور .. لم يكن يدرى هل النور فى الخارج أم فى الداخل ؟! من وضع الله فى قلبه نور المحبة ، فلن يرى إلا نورا . تخيلها تقول له :

- يا حبيبى .. أما آن لك أن تستريح ..؟!

تداخلت الظلمة والضوء ، الكيان والطيف ، العشق والعطش .. لم يعد يعرف موقعه فى عالم البشر ، لكن الشيء الذى يدركه جيداً أنه يعيش حالة وجد ، وأن روحها معه فى القرب والبعد ، وأنه يتمنى أن يراها .. ويحلم بحياة أبدية معها . ورغم أن الحلم يقوده من صعب إلى مستحيل ، فإنه يتمنى .. يتمنى ألا يصحو من أحلامه .. أحلامه الجميلة ....!! (*)

(*) الاثنين أول أغسطس ١٩٩٤ .

- نشرت فى مجلة « حواء » - العدد (٢٠٤٣) فى ١٨ نوفمبر ١٩٩٥ .


فى مقامِ العشــق

جلستْ ـ والشوقُ فى عينيهـا ـ تتأمل الشفق .. لحظة مغيب الشمس وراء الأفق . قرص الشمس سبيكة من الذهب ، تشع خيوطها الصفراء الحانية فى كل اتجاه . السماء تداخلت فيها أضواء الطيف ، استعدادا للرحلة المقدسة ... رحلة اختفاء الشمس الحزينة عن طرقات المدينة . تمنت أن تطير .. وتلحق بقرص الشمس ، عسى أن يحملها إلى ديار المحبوب . الناس شغلتهم الحياة الدنيا . وأنا ... أنا لا أُشغل عنك يا حبيبى ... يا حبيب الأربعاء ، بل يا حبيب كل الأيام ... والأسابيع ... والشهور ... والسنين . يا حبيب العمر .. أحبك .. أحبك يا حبيب الأربعاء . هل ما يحدث مرةً ، يكون مجرد صدفة عارضة .. أم أن هناك قدرا ، يدبر لنا مصيراً لا نعلمه ، ويشكل حلما نتمناه ؛ وإنْ كنا لا نتوقعه .. لمجرد أنه صدفة ... صدفة عارضة ؟

أول مرة التقت به كان يوم أربعاء . تعمل هى وهو فى مدرسة واحدة .. بالمصادفة كانا يجلسان فى حجرة المدرسين ثلاث ساعات دون عمل .شيئا .. فشيئا .. فشيئا اقتربا ... تفاهما ـ رغم كل الفروق ...! هو رجل متزوج .. معذب ، وهى فتاة جميلة ..

مرغوبة مطلوبة .. لكنها انجذبتْ - نحوه - بدافع ، لا تعرف سره . سمعتْ وقرأت كثيرا عن تناسخ النفوس الباقية ، فى الأجساد الفانية . لكنها بدأت تدرك أن ما كانت تظنه شطحة صوفية ، أمْسى حقيقةً كونية .. ونوعا من الحياة البرزخية . ما وقع ذات مرة بالمصادفة .. جعلاه واقعا مقصودا . يلتقيان دائما فى ذات اليوم .. وفى نفس الموعد .. كل أربعاء . تحسُّ سعادة لم تعرف لها طعما .. وهى تتحدث إليه ، أو تسمع منه . صار كل منهما كتابا مفتوحا للآخر . شيئا .. فشيئا .. فشيئا .. احتوته .. واحتواها . لم يعد كل منهما يرى أى شىء فى الوجود إلا بعين الآخر . صار الحبُ عندها - مثلما هو عنده - حالة وجد دائم .. وعشق متصل . بدأتْ تدرك أن الفناء فى المحبوب .. هو عينُ البقاء معه . الفناء ليس غيبة ، وإنما حضور دائم . فى الليلة المظلمة ترى البدر المنير عبر النافذة — التى لا تُغلق ليلا . تكلمه .. ويكلمها ... تستعيدُ كلامه .. وتسترجع أفعاله . تشرب معه بغير كأس ، وتسكر معه دون شراب ، تفيض عليه .. ويفيض عليها . ساعتها تسقط كل الأوصاف المذمومة ، وتبقى كل الأحوال المحمودة . الحب بالمشاهدة يصبح أمرا فانيا .. وبالمجاهدة يصير ذكرا باقيا .. يا حبيبى .. يا حبيب الأربعاء ..

عَجبتُ منك ومنّى ... يا منيةَ المتمنّى
أدْنيتنى منكَ حتى ... ظننتُ أنك أنّى
وغبتُ فى الوجْدِ حتى ... أفنيتنى بك عنّى

أيقظها .. أفزعها .. طرقٌ متواصل على الباب ، فهى حين تجلس للمناجاة تحس أنها تمارس طقسا ، لا يصح أن تتعرى فيه أمام غير المحبوب .

- افتحى .. افتحى يا وفاء ..

- أنا مشغولة .. يا ماما . انتظرى ....

قاطعتها بحدة من وراء الباب : عندى لك خبر جميل .. قولى حاضر ، حتى يحضر الله لك الخير .

- لن أفتح الآن .

- هل تكلمين العفاريت ..؟!

- أكلم العفاريت أو الملائكة .. هذا أمر ، يخصنى وحدى .

- العريس .. وأهله على وشك الحضور .

- تزوجيه أنت ... يا ماما ...

- يا وكستى فيك يا فيفى ..

ذهبتْ بعيدا ، وهى تثرثر بكلام لم تحاول أن تسمعه ...

... خمس وعشرون سنة مرت ... وهى دائما تقول : نعم .. حاضر .. طيب .. من حقها اليوم أن تقول : (لا) . مثل شاة معصوبة العينين ، كانتْ تسير حياتها فى هدوء . لا تفعل إلا ما يرضى الأهل . الكل يعدونها رمز الأدب والحياء والثقة والكبرياء . كثيرون يتمنون رضاها .. لكنها تتمنى أن تعيش حياة نورانية ، فيها حب ووجود .. ورغبة واختيار . تحس أن الله خلقها على شاكلة خاصة ، فهى تحمل نقاء الملائكة وتمرد الجِنّ . لا تكذب .. لا تنافق .. لا ترجو أحداً .ليس لها أصدقاء ... أو أعداء ... تحب الوحدة والتأمل ، وتنفر من الزحمة والثرثرة . هذا الرجل جعلها أكثر تمسكاً بما هى عليه .

بدأت تحس أنها - دونه - هباء منثور .. هذا الرجل توأم الروح وصمام الأمان . هو هى .. وهى هو . ماذا تفعل أمام الأسئلة السخيفة المخيفة . أختها الصغرى سألتها ذات مرة : ما نهاية هذا الحب المجنون مع قيس ؟!

- أنت مثل ماما تماما .. الحب حالة ... الحب حياة .. لا أول .. لا آخر .. لا أمل سوى الحب .. الحب الحقيقى ...!!

تركتها - ساخرة - قبل أن تنهى كلامها . تتعجب من أمر أمها وأختها .. وأهلها جميعا . الإنسان .. يعيش عصر الذرة

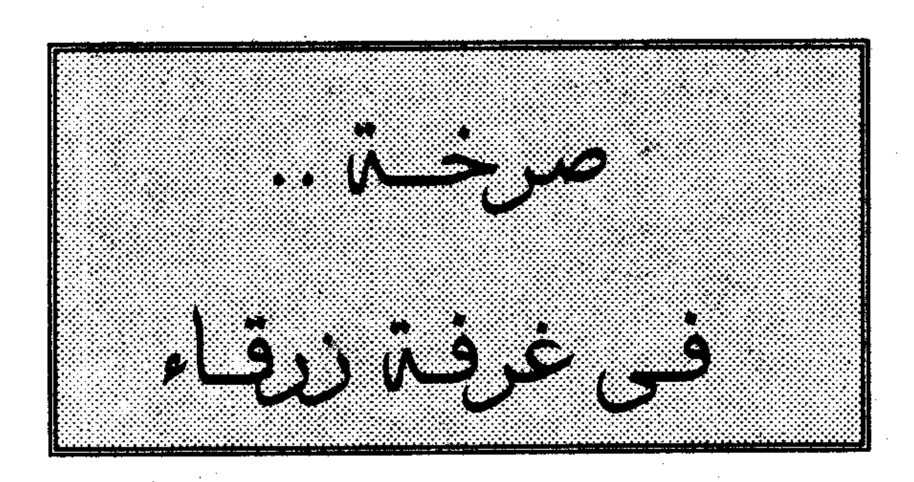
والكمبيوتر ، والأشعة فوق البنفسجية ، والصورايخ العلمية ، والقنوات الفضائية ، والاستشعار عن بُعد . تغيرت كثير من القيم والمبادىء . صارت المادة هى المحرك الأكبر . المال .. المال .. المال .. أصبح لغة العصر ، التى تنطق بغير لسان ، وتعبّر عن كافة أنواع الدلالة الحقيقيْة والمجازية . فى الغرب .. فى الشرق .. فى الشمال .. فى الجنوب . تساوى ما تملك ... وإذا لم تملكْ تهلك . لا .. لا يا أمى .. سيظل النور كاشفاً للظلام ، والقيمة قائدة للمادة ، والروح مسيطرة على الجسد . أشياء كثيرة يمكن أن تتبدل .. أو تتغير إلا حاجة الإنسان إلى الآخر .. الإنسان بغير إنسانية تائه .. ضال . منتهى إنسانية الإنسان .. أن يدرك أن الحب قيمة نورانية ، بها تُدرك سر الحياة وسبب الوجود . أنت أنت ... وحدك ـ لا غيرك ـ الذى جعلتنى أدرك كل هذا . يا سرَّ وجودى .. ونبض فؤادى ، أنت الأول ـ فى الحب ـ والآخر .. أنت الماضى والحاضر ، أنت أنا .. ياكل المنى ، أنت حياتى ودنيتى ... أنت نعيمى وجنتى . تراءى لها من بعيد بوجهه الأسمر .. وبسمته الواثقة .. ونظرته الحانية ، اشتاقتْ أن تنام على صدره ، وأن يربت ـ كعادته ـ على أعطافها . حين تنام على

صدره تحس حلاوة الإيمان .. ولذة الأمان . الحبُّ جميل .. جميل .. لولاه .. ما جرتْ فى النهر المياه .. وما خلق الله الحياة ..!!

ابتسمتْ فى الخيال لهذا الأمل البعيد ، ومضتْ تواصل النجوى فى مقام العشق ، وحالة انجذاب العاشق نحو المعشوق : أنت الفناء والبقاء ..... أنت الأمل والرجاء ... وأنا أحيا بأحلام اللقاء .. فتعال .. تعال يا حبيب الأربعاء ..(*)

(*) الأربعاء ١٧ اغسطس ١٩٩٤.

ـ نُشرت فى مجلة « حواء » ـ القاهرة ، العدد (٢٠٢١) فى ١٧ يونيو ١٩٩٥ .


صرخة..
فى غرفة زرقاء



في منتصف ليلة غاب فيها القمر .. من نافذة مفتوحة ــ أخذت تتأمل الأفق البعيد . جسدها مسجى على السرير .. مومياء أميرة فرعونية . الظلام .. سكون الليل .. حرارة الجو .. الحزن .. كل هذا جعلها تحس بالاختناق . مرارة لاذعة تتحرك فى فمها ، وتتوقف عند منطقة اللوز . رغبة فى الغثيان سيطرت عليها . حاولت أن تنهض من مكانها ، فلم تستطع . جيوش من النمل تنهش فى منطقة المخ ، وتشل الأعصاب . يقظانة هى أم نائمة .. تبصر أم لا تبصر .. حية أم ميتة ..؟!

من مرقدها أحست أن الكون أمسى ظلمات بعضها فوق بعض . اغتال الظلام كل الأضواء . الكون تحول إلى وحش كاسر .. يده تمتد فى هدوء للفتك بها . اليد تمتد ، وتلتف حول رقبتها المرمرية . وهى تلميذة فى المرحلة الثانوية كانت فتاة أحلام كل شباب الحى ، حتى زميلاتها كن يحسدنها على جمالها وكمالها : لمياء لست فتاة عادية ... أنت أميرة من سلالة نفرتيتى ..!

... السرير يتأرجح من تحتها مثل سفينة ضالة فى بحر لجىّ عاصف . الريح تشتد ، والسفينة تهتز . ارتطمت السفينة بصخرة . الصخرة الجبلية خرقت قاع السفينة الجميلة . وحدها تجدف بمجداف خشبى هزيل . الرغبة فى الحياة جعلتها تجدف .. تجدف .. أملا فى أن تنقذ قاربها من الغرق . الريح تزغرد ، والموج يزبد ، والظلام يعربد . واحد من القراصنة ـ ذوى اللحى القذرة ـ بدا لها من بعيد . حاول أن .... اليد تتحسس رقبتها .. تتحرك فى الظلام . اليد لها أظافر مسنونة . الرغبة فى الغثيان ما زالت مسيطرة عليها . حاولت أن تفتح عينيها ، فلم تقدر ... حتى لو استطاعت .. ماذا ترى عيون حوراء فى ليلة ظلماء . يا ملائكة السماء .. خذونى .. خذونى .. أنقذونى .. أنقذونى .. فقدت الأمل فى عالم البشر . كابوس مخيف .. يد القرصان ، تحولت من رقبتها المرمرية إلى الصدر الضامر . من عادتها أن تنام بكامل ملابسها . اليد ـ ذات الأظافر .. أنياب الغُول تمزّق قميص نومها ، بدرجة كادت تسمع فيها الصوت . صوت التمزيق .. حشرجة طلوع الروح من الجسد . لمياء يا أختى ، الفقراء أمثالنا حين يرغبون فى الزواج ، لا يبحثون عن الحب .. ولكن عن الستر . شمعة بدت وسط الظلام ، تضىء .. وتحترق .. تضىء .. وتحترق .. الكابوس ـ لا يزال ـ ينسج خيوطه . ارتعشت .. حاولت أن تبعد يد القرصان ، لكنه ـ عنيدا ـ يحاولُ أن يعريها . أخذت تستغيث ... دون أن

يخرج الصوت من صدرها . لابد أن تفعل شيئاً . الموت أرحم .. لن تذل جمالها .. لن تفرط فى عفافها .

ثلاث سنوات .. وهى على هذه الحالة . الأهل باعوها فى سوق النخاسة بيعة وكس .. رغم أن ذلك كان بعقد سجله رجل ، يلبس عمامة ، ويحمل حقيبة ممزقة .. وشهد على العقد رجلان من أقاربها ـ رغم ذلك .. فهى توقن أن العقد مزور .. مزور .. وتؤمن أن الزواج باطل .. باطل . اخبطى رأسك فى الحائط .. حتى لو رأيت حلمة أذنك .. لن أطلق .. لن أُطلق . أنا رجل ، العصمة فى يدى .. والشرع فى جانبى . يا ألله .. يا رب السماء .. الكافر بكل شىء .. يهدّد بكل شىء ، يهدد باسم الشريعة ..!! يا ألله ... يا رب السماء .. كلمة حق ، يُراد بها باطل ... باطل ... !!

تحول الكابوس المتخيَّلُ .. إلى واقع مُرعب ، قفز على صدرها بوحشية . فى الحرب حين يظفر المقاتل بعدوه يطرحه أرضا ، ويبرك فوق جسده ، ويشل حركته ، حتى يقدر على قتله والانتقام منه . الحرب .. حرب .. إما أن تقتل أو تُقتل . صوت تمزيق الثوب يرتفع من جديد . السفينة تهتزّ .. البحر اللجى مضطرب الأمواج ، والقرصان يصيح : الحقوا بها .. حطموا قاربها .. لابد .. لابد أن تخضع .. وتركع ..!! الأميرة صارت أسيرة .. لكنها مصرة على أن تحترم إنسانيتها . القرصان يستخدم يديه ورجليه ، حتى يوقعها فى قبضته .. ويصيح : أنت عاصية ..

كافرة .. الله غير راض عنك .. والملائكة تلعنـك . يـا ألله .. هـل أنزلت شريعتك لتكون سوط عذاب للبشر ؟! تؤمن أن الله معهـا . الله محبة .. ولا يرضى بأن يُغلق باب على .. اثنيْن ، لا يجمع بينهما حب ومودة ، ولا يكون بينهما سكن ورحمة .

ما زالت النافذة مفتوحة .. والليلة مظلمة .. والحرارة مرتفعة .. والرطوبة خانقة . حـاولتْ .. وحـاولتْ .. حتـى اسـتطاعت أن تهرب من بين مخالب القرصان .. قفزت فـى الظـلام .. فـارتطمت رأسها بالأرض . الدم ينزف من فمهـا وفتحتـى أنفهـا . اختلطت الدموع بالدماء . الوجـه الجميـل .. وجـه حفيـدة نفرتيتـى ـ صـار ساحة معركة .. اعتدى فيها ذئـب علـى غـزال . تحطـم القـارب ، وانكسـرت المجـاديف .. لكـن الأمـيرة الأسـيرة ، لا تـزال فـى نقـاء الملائكة وطهارة بنات الحور . نهض من السرير ، يهـذى بكلمـات لم تسـمعها .. ويهـدد بعبـارات لم تعهـا . بعـد مـدة لا تعـرف مقدارها .. تحاملت علـى نفسـها ، لكى تذهـب إلى الحمـام وتغسـل جراحهـا ، وتمسـح دموعهـا . حـين أضـاءت مفتـاح النـور ، لفـت انتباهها صورة في برواز ذهبىّ لاثنين فى ملابـس الزفـاف . صـورة الرجل داخل الإطار .. لها نفس هيئة القرصان ، الذى طاردهـا فـى الظلام .. وحطم زورقها . قرأت كثيراً عن وقائع الاغتصاب ، التى تحدث فـى هـذا الزمـن الـردىء . لكـن مشـاهد الاغتصـاب ، التـى

تتعرض لها منذ ثلاث سنوات ، لا تظن أنها حدثت لأنثى يتيمة شهيدة من قبل .....!!

حين أغلقت على نفسها الباب .. أحست أن هواء حجرة الحمام ، أكثر نقاء وصفاء من هواء الحجرة ، التى خرجت منها . فتحتْ حنفية المياه ، لكى تغسل وجهها الجميل .. المشوه بالدم والدموع . عاودتها الرغبة فى الغثيان .. لكن الغثيان هذه المرة كان حقيقة . حاولت أن تفرغ بعض السوائل المرة ، التى تجمعت فى أحشائها .. بينما تحاول إخراج العصارة المرّة من جوفها المنقبض ، كانت مياه الصنبور تتدفق .. تتدفق بغزارة ....(*)

(*) الأربعاء ١٢ / ١٠ / ١٩٩٤

فهــرس .. ديــوان قصــص

صرخة .. في غرفة زرقاء

أعْمالٌ أدَبيّة أُخْرى

للمؤلف .. طه وادى

١ ـ عمــار يــا مصــر : مجموعة ١٩٨٠ ـ ١٩٩١
٢ ـ الدموع لا تمسح الأحزان: مجموعة ١٩٨٢ ـ ١٩٩١
٣ ـ حكاية الليل والطريــق : مجموعة ١٩٨٥ ـ ١٩٩١ ـ ١٩٩٢
٤ ـ دائــرة اللهــب : مجموعة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٢
٥ ـ العشــق والعطــش : مجموعة ١٩٩٣
٦ ـ الأفــق البعيــد : رواية ١٩٨٤ ـ ١٩٩٢
٧ ـ الممكــن والمستحيــل : رواية ١٩٨٦ ـ ١٩٩٢
٨ ـ الكهــف السحــرى : رواية ١٩٩٤
٩ ـ الليــالى : سيرة ذاتية ١٩٩٠ ـ ١٩٩٢
١٠ ـ فى البْدء تكون الأحــلام : خواطر أدبية ١٩٩٥
١١ ـ الشمس تشرق فى غرناطة : رواية ـ تحت الطبع

* * *

ثانيا : القصة فى القرآن الكريم :

١ - أولو العزم من الرسُل .. (حـ١)

دار النشر للجامعات - ١٩٩٦ .

٢ - محمد .. الرسول والرسالة .. (تحت الطبع)

* * *

دراسات نقدية للمؤلف

١ - جماليات القصيدة المعاصرة

دار المعارف - الثالثة ١٩٩٤

٢ - شعر شوقى الغنائى والمسرحى

دار المعارف - الخامسة ١٩٩٤

٣ - شعر ناجى - الموقف والأداة

دار المعارف - الرابعة ١٩٩٤

٤ - الشعر والشعراء المجهولون فى القرن التاسع عشر

دار المعارف - الثالثة ١٩٩٥

٥ - ديوان رفاعة الطهطاوى .. جمع ودراسة

دار المعارف - الرابعة ١٩٩٥

٦ - صورة المرأة فى الرواية المعاصرة

دار المعارف - الرابعة ١٩٩٤

٧ ـ دراسات فى نقدا الروايـة

دار المعارف ـ الثالثة ١٩٩٤

٨ ـ شوقى ضيف ـ سيرة وتحية

دار المعارف ـ ١٩٩٢

٩ـ الروايـــة السياسيـــة

دار النشر للجامعات ١٩٩٦

* * *

رقم الإيداع ٨٦٤٣ / ٩٦
الترقيم الدولى 9 ـ 0997 ـ 11 ـ 977